مدارس دمشق فى القرنين : الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين

أ.د/ عبدْ الفتاح فتحي عبد الفتاح
الأستاذ بقسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية بكلية دار العلوم – جامعة القاهرة

تقديم:

يحتوى هذا البحث على : تمهيد ، وثلاثة مباحث ، وخاتمة .

أما التمهيد فيتضمن المفهوم الدقيق للعنوان من خلال تحديد النطاق الجغرافى والزمانى للموضوع ، ثم يبين العلاقة بين المسجد والمدرسة ، ويفسر انتقال التعليم من أولهما إلى ثانيتهما ، مبيناً دوافع إنشاء المدارس ، ثم يطل إطلالة سريعة على بعض من أهم المدارس الأولى فى العالم الإسلامى .

المبحث الأول – المدارس الدمشقية : القائمون على شئونها – وظائفها :

أولاً – تنوع المدارس الدمشقية .

ثانياً – القائمون على شئون مدارس دمشق .

ثالثاً – تعدد وظائف مدارس دمشق .

المبحث الثانى – عناصر العملية التعليمية فى مدارس دمشق :

العنصر الأول – المدرسون .

العنصر الثانى – الهيئة المعاونة .

العنصر الثالث – المقررات الدراسية .

العنصر الرابع – مواعيد الدراسة والإجازات .

العنصر الخامس – أساليب التدريس .

العنصر السادس – تقييم المدرسين.

العنصر السابع – الطلاب .

المبحث الثالث والأخير– عوامل إزدهار التعليم فى مدارس دمشق :

أولاً– توفير الموارد المالية . ثانياً– الاهتمام بتعمير المدارس .

ثالثاً– الرقابة والتفتيش والتقييم . رابعاً– انخراط المجتمع فى طلب العلم .

خاتمة : وهى عبارة عن خلاصة مركزة لنتائج البحث .

التمهيد

تحديد مفهوم العنوان :

مدارس[1]: جمع مدرسة، وهى المكان الذى بُنى بناء مستقلاً عن المسجد ؛ لغرض تدريس العلوم المختلفة ، أو للتخصص فى علم بعينه ، وبداخله مكان تقام فيه الصلوات الخمس ، وقد تقام فيه صلاة الجمعة .

ومن هنا لا يُعْنى هذا البحث بحلقات العلم – ويطلق عليها مدارس تجاوزاً – الموجودة داخل المساجد[2] والزوايا [3].....

---

(١) دَرَس الكتابَ يَدْرُسه دَرْساً و دراسةً ، أي : ذَلَّلَهُ بكثرة القراءة حتى خَفَّ حفظه عليه. و أصل الدراسة : رياضة الشئ و تَعَهُّده ، و منه : تَدارَسوا القرآنَ ، أي : واظبوا على قراءته ؛ لئلا تنسوه . (ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق : عبدالله على الكبير ، و آخرين ، دار المعارف ، القاهرة ، د.ت ، مادة : د . ر . س ، جـ٢ ، ص ١٣٦٠). و المَدْرَس: الكتاب ، و المِدْراس : الموضع الذي يُقرأ فيه القرآن ، و منه : مِدْراس اليهود الذي يُقرأ فيه كتابهم المقدس. (الفيروزابادي : القاموس المحيط ، مصوَّر عن الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م ، باب (السين) ، فصل (الدال) ، جـ٢ ، ص٢١٣). و المَدْرَس: الموضع يُدْرَس فيه ، و الجمع : مدارس. و المدرسة: مكان الدرس و التعليم ، أو هي جماعة من الفلاسفة أو المفكّرين أو الباحثين ، تعتنق مذهباً معيناً ، أو تقول برأي مشترك ، فيقال : هو من مدرسة فلان ، أي: على رأيه و مذهبه. (إبراهيم مصطفى و آخرون : المعجم الوسيط ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست بالقاهرة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م مادة : د.ر.س ، جـ١ ، ص٢٨٩).

(٢) أفرد النعيمي قدراً من كتابه تحت عنوان : (فصل في ذكر المساجد بدمشق). (النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، تحقيق : جعفر الحسنى ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م ، جـ٢ ص٣٠٣- ٣٧٠). و كأن النعيمي يرى أن المساجد ، و الزوايا ، و الجوامع ، و الخانقاوات و غيرها مما أورده في كتابه ، و تأتي الإشارة إليه لاحقاً ، يمكن – بوجه من الوجوه – أن تتبع المدارس عامة ؛ لاشتراكها جميعاً في تدريس العلم لطلابه ، مع إقراره بوجود فوارق بينها ، جعلته يفرد لكل منها فصلاً خاصّاً بها.

(٣) أورد النعيمي فصلاً تحت عنوان : (الزوايا) يمتد في (المصدر السابق) في جـ٢ ، من ص ١٩٦- ٢٢٢.

و يلاحظ أن النعيمى فى : (فصل المدارس المالكية) بدأه بما يعرف ب (الزاوية المالكية). (السابق : جـ٢ ، ص٣- ٧). و كان الأولى وضعها في : (فصل الزوايا) ، و لعله أقحمها في هذا الموضع ؛ لعناية شيوخها بتدريس المذهب المالكي ، و عدم استقلالها بمكان خاص بها ، فهي تلاصق المقصورة الحنفية غربيَّ الجامع بدمشق ، و هذا يعني أنها موجودة داخله ، أو على حد تعبير محقق كتاب : (الدارس) : من مدارس الجامع الأموي. (السابق: جـ٢ ، ص٣ (و توضيح المحقق في حاشية رقم ١).

والجوامع[1] (المساجد الجامعة التى تقام بها صلاة الجمعة)، والخانقاوات (دورالصوفية) ، وغيرها[2].

دمشق : نعنى بها البلدة المشهورة قصبة الشام، جنة الأرض؛ لحسن عمارتها، ونضارة بقعتها، وكثرة فاكهتها ومياهها، وتقع على أرض مستوية تحيط بها الجبال الشاهقة، وبها جبل قاسيون المملوء بالعُبّاد و الزهاد[3].

وجدير بالذكر أننى لا أكتفى بدراسة مدارس دمشق، بل أتجاوزها لدراسة مدارس (صالحية دمشق)[4]، التى تعد من ضواحى دمشق، وهى نموذج للامتداد العمرانى لدمشق بعد أن ضاقت بأهلها،وإذا كان جبل قاسيون يقع فى الجزء الشمالى من دمشق، فإن رَبَضَ الصالحية يقع فى سفح هذا الجبل من غوطة دمشق[5]وهى لا

---

(١) خصص النعيمي فصلاً تحت عنوان : (الذيل في ذكر الجوامع) في (السايق : جـ٢ ، ص ٣٧١-٤٤٠) ، شغل منها (جامع بني أمية) وحده من (ص٣٧١-٤١٦)، و أشار النعيمي إلى المدارس الموجودة داخل هذا الجامع الضخم ، و منها : الزاوية المالكية المشار إليها سلفاً، ص٤١٢ . و مما يدل على اضطلاع الجوامع عامة بتدريس العلم لطلابه ما ورد في ترجمة (ابن مزهر الدمشقي ت ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٧م)، إذ بنى جامعاً تجاه بيته ، و قرّر فيه مدرسين للتفسير ، و الحديث ، و الفقه ، و يحضر هذه الدروس الطلاب ، و الصوفية. (السيوطي : نظم العِقْيان في أعيان الأعيان ، حرره: د. فيليب حتّي، المطبعة السورية الأمريكية – نيويورك ، ١٩٢٧ م ، ص٩٧-٩٨ (ترجمة رقم ٥٧).

(٢) تناولها النعيمي بكتابه تحت عنوان : (فصل الخوانق). (الدارس في تاريخ المدارس) ، جـ٢ ، ص ١٣٩-١٩١ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندي ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، جـ٢ ، ص ٥٢٧ ، ٥٢٩(رقم ٤٨٦٦).

(٤) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة المسماة : (تحفة النظار في غرائب الأمصار ، شرح و هوامش : طلال حرب ، الطبعة الثانية ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م ، ص٩٢. و سماها محمد أحمد دهمان محقق كتاب : ابن طولون الدمشقي : القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية ، الطبعة الثانية ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م ، ص٧ ، سماها (دمشق الجديدة).

(٥) ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ١١٩ ، و محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيق كتاب (القلائد الجوهرية) لابن طولون الدمشقي ، ص٧ . و ربض الصالحية : ضاحية الصالحية ؛ لأن الربض الناحية من الشئ ، أو ما حول المدينة ، و يجمع على (أرباض). (إبراهيم مصطفى و آخرون : المعجم الوسيط ، مادة : ر.ب.ض ، جـ١ ، ص٣٣٥.

تقل عن دمشق روعة وجمالاً فى بساتينها الأنيقة ومياهها العذبة [١]، وسكنها مجموعة من الصالحين إليهم نُسبت،وأكثر أهلها من القدس على مذهب الحنابلة[٢]، وهم الذين عمروها واختاروا مكانها الفسيح قرب(نهر يزيد)[٣] ،وشرعوا فى بناء المدارس ،التى امتدت إلى الجزء الشمالى الغربى من دمشق[٤].

فى القرنين : الثامن ، و التاسع الهجريين : تم اختيار هذين القرنين تحديداً ؛ نظراً لانتشار المدارس التى شُيّدت فى العصر المملوكى فى هذة الفترة فى أنحاء الدولة المملوكية، حيث لم تقتصر على إقليم دون آخر ، لاسيما العواصم الكبرى ،مثل : دمشق[٥]، ويضيف باحث آخر أن دمشق كانت موئل العلماء فى هذين القرنين ، وحظيت بجمهرة عريضة من العلماء الأعلام ، الذين ألّفوا المصنفات الضخمة ، ونبغ منهم الحفاظ ، والمؤرخون ، وأصحاب الموسوعات الدالة على البراعة فى العلم ، كما ظهرت أسر علمية ، توارثت البحث و النظر والدرس ، و التأليف على مدى أجيال متعاقبة كالأسرة الأسدية فى دمشق (بنى قاضى شهبة)[٦]. لقد حصدت دمشق – فى هذه الفترة – ثمار إنجازات العلماء فى القرون السابقة وتفاعلهم مع المجتمع ، وتطويرهم للعلوم ، وللمراكز التعليمية ، ودعمهم للمؤسسات الدينية ، سواء كانوا

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، المؤسسة المصرية للتأليف و الترجمة و الطباعة و النشر ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م ، جـ٤ ، ص٩٤- ٩٥.

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٤٢ (رقم ٧٤٤٢).

(٣) محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيق كتاب : (القلائد الجوهرية) لابن طولون الدمشقي ، ص٨.

(4)**Joan E.Gilbert: Institutionalization of Muslim Scholarship and Professionalization of the ' Ulama' in Medieval Damascus , Studia Islamica, No.52, Maisonneuve & Larose , 1980 , P.114.**

(٥) د.سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر و الشام ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة، ١٩٩٤م ، ص٣٤٠.

(٦) عدنان درويش : مقدمة تحقيق كتاب : (تاريخ ابن قاضي شهبة) ، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٩٤م ، جـ١ ، ص١١- ١٢.

علماء محليين أم وافدين[1]، وصب ذلك كله فى الدور العلمى الذى لعبته المدارس التى ازدهرت فى عهد نور الدين محمود (ت٥٦٩ ه/ ١١٧٣م) ، والأيوبيين والمماليك[2]، ونشر المقادسة الفقه الحنبلى ،وأقبل الناس على علم الحديث وروايته ، وتشجع العوام والخواص على حضور مجالسه ، ونسخ كتبه ، واقتنائها[3].

العلاقة بين المسجد والمدرسة :

ثمة تقارب بين وظيفة المسجد والمدرسة ، فالمسجد مكان للعبادة والدرس فى حين صارت المدرسة مكاناً للدرس والعبادة ، وهو مايمكن أن يطلق عليه (الجامع المدرسة) ، و(المدرسة الجامع)[4]، لكن الفارق واضح بينهما ، فالمسجد لايعد مدرسة بالمعنى الدقيق ؛ لأن وظيفته الأولى ليست تدريس العلم[5]، كما أنه يفتقد خواص

---

(1)Joan E.Gilbert: Institutionalization of Muslim Scholarship and Professionalization of the ' Ulama' in Medieval Damascus, pp. 105-106,112.

(٢) ستيفن ليدر و آخران : مقدمة معجم السماعات الدمشقية المنتخبة من ٥٥٠-٧٥٠ هـ / ١١٥٥-١٣٤٩م المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٩٦م ، ص١٢. و يلاحظ أن ستيفن و زميليه حددا ازدهار المدارس حتى منتصف ق ٨ ه ، و هذا الكلام محل نظر ، و سيثبت هذا البحث غير ذلك بإذن الله ، و لعلهم اختاروا هذا التاريخ ؛ لأن سنة ٧٥٠ه/ ١٣٤٩م ـ هي التي توقفوا عندها في جمع السماعات الدمشقية الموجودة بالمخطوطات التي طالعوها في ظاهرية دمشق.

(٣)نفسه . و لاشك أن النهضة العلمية في مدارس دمشق كانت أوسع من ذلك بكثير ، و لم تقتصر على الفقه الحنبلي ، و رواية الحديث النبوي على نحو ما سنرى في هذا البحث إن شاء الله.

(٤) د.سعيد عبد الفتاح عاشور : العلم بين المسجد و المدرسة ، بحث نشر في كتاب (ندوة تاريخ المدارس في مصر- الإسلامية) ، سلسلة (تاريخ المصريين ، رقم ٥١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص٢٧-٢٨.

(٥)د.أيمن فؤاد سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، بحث نشر في كتاب (ندوة تاريخ المدارس في مصر- الإسلامية) ، سلسلة (تاريخ المصريين ، رقم ٥١)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص١٠٠، و د.حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م ، ص٧.

المدرسة كالإيوان (قاعة المحاضرات) ، والمساكن الخاصة بالطلاب ، وأماكن إقامة المدرسين والموظفين ، وغيرها[١].

دوافع إنشاء المدارس :

١ . تطور الحياة الإسلامية وتعقدها ، وتراكم التراث الثقافى ، واتساع دائرة العلم، وتعدد أنواع العلوم ، وازدياد أعداد الطلاب ، بحيث غدا من الصعوبة بمكان الاعتماد على المسجد وحده كمكان يجمع بين العبادة والتدريس معاً . ومن هنا كان لابد من إقامة مراكز خاصة بالتعليم والتدريس تستوعب ماتقدم ذكره ، وتواكب تطور المجتمع الإسلامى الذى لم تعد الكتاتيب المجاورة للمساجد بنظامها البدائى، ومناهجها المحدودة قادرة على مجاراته[٢].

٢. توحيد كلمة أصحاب المذاهب السنية لمواجهة الأفكار الشيعية والقضاء عليها[٣].

٣. تكوين كوادر علمية سنية تلبى احتياجات الدولة الإسلامية الأيوبية من قضاة، وفقهاء، ومحدثين، وأئمة، وخطباء، ومدرسين، ووكلاء بيت المال، وغيرهم[٤]، وميل السلاطين الأيوبيين إلى العلم ، ورغبتهم فى إثراء الحياة الفكرية و العلمية[٥].

---

(١) د.أحمد شلبي : التربية و التعليم فى الفكر الإسلامي –جوانب التاريخ و النظم و الفلسفة ، ضمن موسوعة الحضارة الإسلامية ، الطبعة العاشرة ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٩٢م ، جـ٥ ، ص١١٧ ، و د.عفاف سيد محمد صبرة : المدارس في العصر الأيوبي ، بحث نشر في كتاب :(ندوة تاريخ المدارس في مصر الإسلامية) ، سلسلة (تاريخ المصريين ، رقم ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص١٦٥-١٦٩.

(٢) د. داود عبد الملك يحيى الحدابى : الإدارة التربوية العربية الإسلامية ، موسوعة (الإدارة العربية الإسلامية) الناشر : المنظمة العربية للتنمية الإدارية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ١٤٢٤ه/ ٢٠٠٤م ، المجلد الرابع ، الجزء السابع ، ص١٦٢ – ١٦٣.

(٣) د.أيمن فؤاد سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص٩٤ ، و د. حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، ص٢٦١-٢٦٧.

(٤) د.أيمن فؤاد سيد : المدارس في مصر قبل العصر الأيوبي، ص٩٤ ، و د. حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ، ص٢٦٧-٢٦٨.

(٥) د. حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، ص٢٦٨- ٢٦٩.

٤. وعلى مستوى الدوافع الخاصة : رغبة أصحاب الأملاك فى الحفاظ عليها بعد مماتهم ، فأقاموا المدارس وخصصوا لها الأوقاف ، واشترطوا إشراف أبنائهم عليها ، أو يكون لهم نصيب منها ، فضمنوا لهم بذلك حياة كريمة من بعدهم ، إضافة إلى رغبة هؤلاء فى نيل الثواب الجزيل من الله (عز و جل)[١].

المدارس الإسلامية الأولى :

رجح المقريزى[٢] أن أول من حُفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نَيْسابور[٣] بعد المائة الرابعة من الهجرة ، فبنيت بها المدرسة البيهقية ، والسعيدية ، وغيرهما . أما أشهر مابنى من المدارس قديماً : المدرسة النظامية ببغداد نسبة إلى الوزير نظام الملك (٤٠٨ – ٤٨٥هـ/ ١٠١٧-١٠٩٢م)[٤] وزير السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، وشرع فى بنائها سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م ، وفُرغ من بنائها سنة ٤٥٩ه/ ١٠٦٦م . ودرّس فيها الشيخ أبو إسحاق الشيرازى صاحب كتاب (التنبيه) فى الفقه الشافعى .

ثم تتابعت المدارس فى مصر منذ أيام الفاطميين ، ومن بعدهم الأيوبيون والمماليك ، ويختص بحثنا بالحديث عن (مدارس دمشق فى ق٨،٩هـ) من حيث : تخصصاتها ، ووظائفها، والدور الذى لعبته المدارس الدمشقية الموجودة فى تلك الفترة الزمنية فى النهوض بالعملية التعليمية ، وعوامل ازدهار التعليم بالمدارس فى هذه الحقبة التاريخية .

---

(١) المرجع السابق : ص٢٧١.

(٢) المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٧م ، جـ٢ ، ص٣٦٣.

(٣) مدينة عظيمة معدن الفضلاء و منبع العلماء ، تقع في إقليم خراسان ، مياهها متوفرة لكنها ليست عذبة ، و كثيرة الفواكه و الخيرات ، و خرج منها أئمة العلم. (ياقوت معجم البلدان ، جـ٥ ، ص٢٨٢-٢٨٣ (رقم ١٢٣١٢).

(٤) راجع ترجمته فى : الصفدى : الوافى بالوفيات ، تحقيق : رمضان عبد التواب ، مطابع صادر – بيروت ، الناشر : فرانز شتاينر – فيسبادن ، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م ، جـ١٢ ، ص١٢٣-١٢٧ (رقم ١٠٣). و يرى بعض الباحثين أن المدارس ازدهرت على يد نظام الملك ، و اقتدى به من بعده في بناء المدارس في مختلف أقاليم الإسلام ، و أحيا مذاهب أهل السنّة ، و جعل المذهب الشافعي مذهباً رسمياً للخلافة العباسية و الشرق الإسلامي. (د. أحمد شلبي : التربية و التعليم في الفكر الإسلامي ، جـ٥ ، ص٣٦٦ ، و د.عفاف صبرة : المدارس في العصر الأيوبي ، ص١٤٣-١٤٤.

المبحث الأول
(المدارس الدمشقية : القائمون على شئونها – وظائفها)

أولاً – تنوع المدارس الدمشقية :

لعل كتاب (الدارس فى تاريخ المدارس) للنعيمى يأتى على رأس المصادر ، التى عُنيت بدراسة المدارس فى دمشق ، وباستقراء محتوياته تبين مايلى :

- دُور القرآن الكريم : أورد منها سبعاً[١] .
- دُور الحديث النبوى : عددها ست عشرة داراً[٢] .
- دُور القرآن و الحديث معاً : عددها ثلاث[٣] .
- مدارس الشافعية : عددها إحدى وستون مدرسة[٤] .
- مدارس الحنفية : عددها اثنتان وخمسون مدرسة[٥].
- المدارس المالكية : أورد منها ثلاثاً على الصحيح [٦].
- مدارس الحنابلة : عددها إحدى عشرة مدرسة[٧].
- مدارس الطب : ثلاث مدارس[٨].

ولما كان من العسير استعراض كل هاتيك المدارس ، فإننى سأكتفى بتناول بعض النماذج المختارة ،التى تمثل الأنواع السابقة ، إضافة إلى بعض المدارس المهمة الأخرى، التى لم ترد لدى النعيمى .

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ،ص٧-١٨ .

(٢) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٩-١٢٢ .

(٣) السابق : جـ١ ، ص١٢٣-١٢٨ .

(٤) السابق : جـ١ ، ص١٢٩-٤٧٢ .

(٥) السابق : جـ١ ، ص٤٧٣- ٦٥٠ .

(٦) السابق : جـ٢ ، ص٧-٢٨ .

(٧) السابق : جـ٢ ، ص٢٩-١٢٦ .

(٨) السابق : جـ٢ ، ص١٢٧-١٣٨ .

• دُور القرآن الكريم : وهى التى أنشئت فى دمشق ، واستقبلت طلاب العلم الراغبين فى تعلم كيفية التلاوة الصحيحة للقرآن الكريم وفق قواعد التجويد ، وإجادة القراءات المختلفة له ، وتوفر على القيام بهذه المهمة العلماء المقرئون[١] .

١ . دار القرآن الجزرية :

تنسب الى شمس الدين أبى الخير محمد بن محمد بن على بن يوسف الجَزَرىّ[٢] الدمشقى المقرئ الشافعى . ولد سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م داخل خط القصّاعين بين السوريْن بدمشق ، ونشأ بها ، فحفظ القرآن ، وطلب الحديث والفقه ، حتى أذن له العلماء بالإفتاء والتدريس والإقراء ، وولى مشيخة الإقراء بالمدرسة العادلية وغيرها[٣]، وعمَّر مدرسة للقراء سماها دار القرآن ، وتقع بدرب الحجر[٤]، قرب نهاية نهاية القرن الثامن الهجرى[٥]. ولابن الجزرى مؤلفات عديدة مفيدة ، منها: النشر فى القراءات العشر ، وطبقات القراء ، و التمهيد فى التجويد[٦]. هذا وقد التقى به المقريزى فى القاهرة فى السنة التى مات فيها ابن الجزرى (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) ، وقد ثقل سمعه ، إلا أنه كان لايزال ذا شكل حسن ، وفصاحة وبلاغة[٧] .

---

(١) المقرئ : هو الذي يُقرئ القرآن العظيم ، و قد غلب اختصاصه – في العُـرْف – عـلى مشـايخ القـراءة مـن قـراء القراءات السبع المجيدين المتصدّين لتعليم القراءات. (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٤٦٤).

(٢) نسبة إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل. (السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسـع ، النـاشر : دار الكتـاب الإسلامي ، د.ت ، جـ٩ ، ص٢٥٥ ، (ترجمة رقم ٦٠٨).

(٣) السخاوي : الضوء اللامع: جـ٩ ، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٨-٩. قال محقق الكتاب في ص٨ ، حاشية (٦) : و هو – اليوم – الطريق الممتد من داخل باب توما نحو الجنوب ، و يعرف بـ(جادّة باب توما).

(٥) أرجح بناء هذه الدار بين سنتي : ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م ، ٧٩٨ هـ/ ١٣٩٥م ؛ لأن ابن الجزري اضطربت أحوالـه أحواله بعدها ، و فَرّ من دمشق ، و أمضى معظم ما بقى من حياته في شيراز ، و بها توفى. (راجع : المقريـزي: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ، تحقيق : د.محمـود الجلـيلي ، دار الغـرب الإسـلامي – بـيروت ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٢م ، جـ٣ ، ص١٠٨ (ترجمة ٩٩٧) ، و السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٩ ص ٢٥٦ (ترجمة ٦٠٨).

(٦) راجع مؤلفاته في: المقريزي: درر العقود ، جـ٣ ، ص ١٠٨ ، والسخاوي: الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص ٢٥٧.

(٧) المقريزي : درر العقود ، جـ٣ ، ص١٠٩.

٢. دار القرآن الدلامية :

تنسب إلى أحد أعيان التجار بالشام زين الدين دلامة بن عز الدين البصرى (ت٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) ، وأنشأها إلى جانب داره ، ووقفها سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م[١]، وتقع شمالى المدرسة المارداني شرقى الشارع الموصِّل إلى الجسر الأبيض بالصالحية[٢]. تشتمل على إيوانين (قاعتين للدروس) ،أحدها يطل على حديقة ، والآخر يطل على الطريق ، وبينهما برْكة مياه . وللمدرسة باب داخلى يوصل إلى باب خارجى بجواره باب بيت الخلاءَ (قضاء الحاجة) ، وباب المكتب (لعله مكتب تحفيظ القرآن للأطفال)، وقريب منها بيت شيخ المدرسة ، وإمامها . ويوجد مدفن صاحب المدرسة إلى جوار الإيوان المطل على الطريق[٣]. وأول من تولى الإمامة والمشيخة بها الشيخ شمس الدين البانياسى[٤] وتجدر الإشارة إلى وجود دور أُخَر للقرآن نكتفى بالإشارة إليها ، مثل : دار القرآن الصابونية[٥] ، ودار القرآن الخيضرية[٦].

دار القرآن و الحديث التنكزية :

تنسب هذه الدار إلى سيف الدين تنكز الناصرى نائب السلطنة بالشام[٧]، وتقع شرق حمَّام نور الدين الشهيد بسوق القمح بجوار دار تنكز الضخمة المعروفة ب(دار

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٩.

(٢) ابن طولون الدمشقي : القلائد الجوهرية ، جـ١ ، ص١٢٤.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٢٦-١٢٧.

(٤) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص١٠.

(٥) بُدئ بناؤها سنة ٨٦٣ ه/ ١٤٥٨م ، و فُـرغ منهـا سـنة ٨٦٨ ه/ ١٤٦٣م، و تنسـب إلى صـاحبها شـهاب الـدين الصابوني الدمشقي (ت٨٧٣ ه/ ١٤٦٨م). راجع : المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٣-١٤.

(٦) أنشئت سنة ٨٧٨ ه/ ١٤٧٣م. (المصدر السابق : جـ١،ص٧) و تنسب إلى صاحبها قاضي القضاة قطـب الـدين الخَيْضَريّ الدمشقي (ت٨٩٤ه/ ١٤٨٨م). راجع ترجمته فى السيوطى : نظم العقيان ، ص١٦٢ (رقـم ١٧٠)، و النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص ٧-٨ ، و ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشـق المعـروف بـــ(الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام)، تحقيق : د.صلاح الدين المنجد ، مطبوعـات المجمـع العلمـي العـربي بدمشق ، ١٩٥٦م ، ص١٧٨-١٧٩.

(٧) من وظائف أرباب السيوف ، و هي أجَلّ نيابات الشام وأعلاها رتبة ، و يُعبَّر عنها في المكاتبات الرسمية بـ(كافل بـ(كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس) ، و صاحب هذا المنصب ينوب بدمشق عن السلطان ، ويقوم مقامه

الذهب) . هذا ، وقد أمر تنكز بهدم حمام سويد ،وجعله دار قرآن وحديث ، وكانت فى غاية الحسن ، ورتّب فيها الطلبة والمشايخ ؛ لتعلم قراءة القرآن ، ودراسة ورواية حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وذلك سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م[١].

حقق تنكز (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) ثروات طائلة ، حرص على إخراج زكاتها لمستحقيها ، وأنفق الأموال فى أبواب الخير المختلفة كبناء المساجد والمدارس ، ومما وقفه على دار القرآن والحديث التى أقامها : تسعة عشر حانوتاً داخل السوق إضافة إلى سوق القشاشين ، وثمانية عشر حانوتاً أخرى خارجها ، وإصطبل ، وبستان ، وخراج قرية زبدين (إحدى قرى غوطة دمشق)[٢].

من أئمة هذه المدرسة: الإمام الذهبى (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)[٣]، وسليمان بن عبد الحكيم المالكى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)[٤].

ومن دور القرآن والحديث الأخرى التى نكتفى بالإشارة إليها : دار القرآن و الحديث الصَّبَّانيّة ، ودار القرآن والحديث المعبدية[٥]

- دور الحديث النبوى الشريف : وهى التى أنشئت لرواية ودراسة حديث الرسول ، وفيها :

دار الحديث الأشرفية :

، ويشرف على البيمارستان النوري بدمشق ، و على الجامع الأموي بها. (القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٨٤). و يضيف أحد الباحثين أن نائب السلطنة بيده تعيين الأمراء المماليك فى المناصب ، و تعيين الوظائف الديوانية و الدينية، و توزيع الإقطاعات ، و التصرف المطلق فى كل أمر (في حالة ضعف السلطان). (د.عبد المنعم ماجد : نظم دولة سلاطين المماليك و رسومهم في مصر – دراسة شاملة للنظم السياسية، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م ، جـ١ ، ص٤٣).

(١) ابن كثير : البداية و النهاية ، تحقيق : د.أحمد أبي ملحم و آخرين ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٩٨٨م جـ١٤ ، ص١٣٨-١٣٩ ، و النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص١٢٣ .

(٢) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٢٥-١٢٧ .

(٣) راجع ترجمته في : السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود الطناحى ، و عبد الفتاح الحلو ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٩٦٤م ، جـ٩ ، ص١٠٠-١٠٥ .

(٤) النعيمى : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص١٢٧ .

(٥) المصدر السابق: جـ١ ، ص١٢٨ .

تقع بجوار باب القلعة الشرقى غرب المدرسة العصرونية ، وشمال المدرسة القيمازية الحنفية . كانت دار الحديث الأشرفية داراً للأمير صارم الدين قايماز بن عبد الله النجمى واقف المدرسة القيمازية ، وله بها حَمام ، فاشترى الدار الملك الأشرف موسى بن العادل (ت٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)[١]، وأمر بتحويلها إلى دار حديث منسوبة إليه سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م ، وخَرّب الحمام ، وجعله سكناً للشيخ المدرس بدار الحديث[٢]. وافتتحت الدار سنة ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م ، وأملى بها الحديث الشيخ تقى الدين بن الصلاح (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) ، ووقف الملك الأشرف عليها الأوقاف ، وجعل بها نعل النبى (صلى الله عليه وسلم) ،وسمع بها صحيح الإمام البخارى[٣].

ومن أبرز مدرسى هذه الدار : زين الدين الفارقى (ت٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)[٤]، وصدر الدين الوكيل (توفى بالقاهرة ٧١٦ه/ ١٣١٦م) بعد أن درّس بها سبع سنوات[٥]، وكمال الدين بن الشريشى الشافعى (ت٧١٨ه/ ١٣١٨م)[٦]، وعلم الدين البرزالى الدمشقى (ت٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م)[٧] والمِزِّىّ (ت٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)[٨]، وابن كثير (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م)[٩].

---

(١) ترجمته في : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق : د.إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٦٨م ، جـ٥، ص٣٣٠-٣٣٦(رقم ٧٤٩).

(٢) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦.

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص١٩-٢٠.

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي ، مطابع دار صادر – بيروت ، الناشر : دار فرانزشتاينر- شتوتجارت ، ١٩٩١م ، جـ١٧ ، ص ٦٠٢-٦٠٣ (رقم ٥١٢).

(٥) الكتبي : فوات الوفيات ، تحقيق : د.إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٧٣م ، جـ٤ ، ص١٤.

(٦) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٢٠-١٢٢ ، و النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٣٣-٣٥.

(٧) الكتبي : فوات الوفيات ، جـ٣ ، ص١٩٦-١٩٨.

(٨) راجع ترجمته في : المصدر السابق : جـ٤ ، ٣٥٣-٣٥٥ ، و النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ص٣٥ ، ١١٣ ، و الشوكاني : البدر الطالع ، وضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٨م ، جـ٢ ، ص١٩٦-١٩٧.

(٩) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٣٦-٣٧.

تعرضت بلاد الشام لهجوم تترى بقيادة غازان(سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) ، وحوصرت قلعة دمشق ، وألقوا عليها قوارير النفط حتى احترقت الأخشاب و انهار السقف ، و امتدت النيران إلى دار الحديث الأشرفية ، والمدرسة العادلية ، فاحترقتا[١]. فاحترقتا[١]. ولاشك أنهما أعيد تعميرهما ، وظلت دار الحديث الأشرفية تؤدى دورها فى تعليم حديث رسول الله[٢].

ومن دور الحديث الأخرى التى نكتفى بالإشارة إليها : دار الحديث البهائية[٣]، ودار الحديث السكرية[٤]، ودار الحديث الفاضلية[٥].

- **من مدارس الفقه الشافعى :**

لاحظنا – فيما مضى – أهمية علم الفقه فى مدارس دمشق على المذاهب الأربعة ، وكثرة مدارس الفقه الشافعى خاصة وتفوقها على بقية مدارس المذاهب الأخرى ، ويكاد يكون المذهب الشافعى هو المذهب الرسمى ببلاد الشام ، وكان يشترط فى خطيب الجامع الأموى أن يكون شافعيا[٦].

- **المدرسة العذراوية :**

تنسب إلى عذراء بنت أخى صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٩٣هـ/ ١١٩٦م). أبوها شاهنشاه بن أيوب ، وهى بحارة الغرباء داخل باب النصر

---

(١) المقريزي : المقفى الكبير ، تحقيق : محمد اليعلاوي ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، ١٩٩١م ، جـ٢ ، ص١٦ (رقم ٦٩٧).

(٢) آخر ما ورد من شيوخها : علاء الدين بن الصيرفي (٨٤٢-٨٤٤هـ/ ١٤٣٨-١٤٤٠م) ، النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٤٣.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ، ص٥٥-٥٩.

(٤) السابق : جـ١ ، ص٧٤- ٨٠.

(٥) السابق : جـ١ ، ص ٨٩-٩٦.

(٦) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق : د.سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٧٢م ، جـ٤، جـ٤، ق١ ، ص١١٨ ، و درر العقود الفريدة ، جـ٢ ، ص ١٦٨.

المعروف بـ(باب السعادة) ، وذلك سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[١]. وقد زارها الرحالة ابن بطوطة ، وقال : إنها أعظم المدارس الشافعية بدمشق[٢].

ومن مدرسيها : عماد الدين بن الصائغ (ت ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م)[٣]، وسبط تقى الدين السبكى (ت ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)[٤].

- **المدرسة الشامية البَرّانية :**

بنت هذه المدرسة ست الشام بنت أيوب ، وأخت السلطان الناصر صلاح الدين (ت ٦١٦هـ/ ١٢١٩م)[٥]، وهى من أكبر المدارس ، و أعظمها ، وأكثرها فقهاً ، وأوقافاً، وتقع بالعُقيبة ، أو بـ(محلة العونية) بدمشق[٦].

من مدرسى هذه المدرسة : شمس الدين بن الشيرازى (ت ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م)[٧]، وزين الدين بن المرحل (ت٧٣٨ هـ/ ١٣٣٧م)[٨]، وتاج الدين الزهرى (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)[٩].

- **المدرسة الفارسية :**

تقع قبلى الجامع الأموى بدمشق غربى المدرسة الجوزية الحنبلية تجاه الخارج من باب الزيادة[١]. وتنسب إلى الأمير سيف الدين فارس الدوادار التنمى[٢]، الذى

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٣٧٣-٣٧٤. لعذراء ترجمة في : الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ١٩ ، ص٥٣٧-٥٣٨.

(٢) رحلة ابن بطوطة : ص١١٤.

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٣٧٦.

(٤) المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٧٨-٣٧٩.

(٥) ترجم لها ابن كثير في : البداية و النهاية ، جـ١٣ ، ص٩٢ ، و قال : كانت من أكثر النساء صدقة وإحساناً إلى الفقراء ، و كانت تعمل في بيتها كل عام بآلاف الدنانير الذهبية أشربة و أدوية و عقاقير ، و غير ذلك ، و توزعه على المحتاجين.

(٦) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٢٧٧.

(٧) المصدر السابق: جـ١ ، ص٢٨٢-٢٨٣.

(٨) السابق: جـ١ ، ص٢٨٣-٢٨٤.

(٩) السابق : جـ١ ، ص٢٨٧ ، و ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص١٤٨-١٤٩.

أنشأها فى حياة أستاذه تنم (أوتنبك المحمودى نائب دمشق)[٣] سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[٤].

جعل الأمير فارس بمدرسته المذكورة شيخين مدرسيْن للعلم ، يُقرأ عليهما أنواع العلوم من المذاهب الأربعة[٥]. ومعنى هذا أن المدرسة - وإن كانت مختصة بالفقه الشافعى - كان يسمح لطلاب المذاهب الأخرى بقراءة مافى مذاهبهم على شيخى المدرسة ، اللذيْن - فيما نتوقع - كان لديهماإلمام بفقه المذاهب الأربعة .

وخصص الأمير فارس أوقافاً كثيرة للإتفاق على متطلبات مدرسته ، مثل : دخل قرية صحنايا (على بعد عشرة كيلو مترات جنوب دمشق)[٦]، التى اشتراها لهذا الغرض سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م وربع قرية فزارة (على بعد ١٥كليو متراً جنوب القنيطرة)[٧]من عمل الجولان ، وربع سوق السلاح[٨].

ومن مدرسى هذه المدرسة : جمال الدين الطيمانى (ت٨١١هـ/ ١٤٠٨م) ، و شهاب الدين بن حجى (ت٨١٦هـ/ ١٤١٣م)[٩].

---

(١) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٤٢٦-٤٢٧.

(٢) له ترجمة يسيرة في : السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٦ ، ص١٦٣ (رقم ٥٤٣)، و فيها : أنه دوادار تنم نائب دمشق. توفى سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م. و الدوادار : اسم فارسي مركب من لفظين : أحدهما عربي و هو الدواة و الآخر فارسي ، و هو دار بمعنى : ممسك. فهو -إذن- ممسك و حامل دواة السلطان ، أو الأمير ، و يتولى أمرها ، و ما يلحق بها من مهام كتبليغ الرسائل ، و إبلاغ عامة الأمور. (القلقشندي: صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٩ ، جـ٥ ، ص٤٦٢).

(٣) ورد باسم (تنبك) ، و أخرى باسم (تنم) ، و عَلَّق السخاوي : أظنهما واحداً ، و جعل وفاته سنة ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م. الضوء اللامع ، جـ٣ ، ص٤٣ (رقم ١٧٨) ، ص٤٥ (رقم ١٩٠).

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٤٢٦.

(٥) المصدر السابق : جـ١ ،ص٤٢٧.

(٦) نفسه : (هامش١).

(٧) السابق : جـ١ ، ص٤٢٩ (هامش١).

(٨) السابق : جـ١ ، ص٤٢٧-٤٢٩.

(٩) السابق : جـ١ ، ص٤٢٨.

ومن المدارس الشافعية المعروفة التى نكتفى بالإشارة إليها : المدرسة الدماغية[1]، الدماغية[1]، والمدرسة الأتابكية[2]، والمدرسة البادرائية[3]، و المدرسة العصرونية[4]. العصرونية[4].

من مدارس الفقه الحنفى :

- **المدرسة النورية الكبرى[5]:**

يرى النعيمى عدم دقة نسبتها إلى نور الدين محمود سنة ٥٦٣هـ/ ١١٦٧م ، وإنما الصواب لديه أن منشئها هو الصالح إسماعيل ابنه (ت ٥٧٧هـ/ ١١٨١م) ، وبعد فراغه منها نقل رفات والده من قلعة دمشق ودفنه بها ، و أنها كانت بعض دار هشام ابن عبد الملك (١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤-٧٤٣م) وكانت- قديماً – دار معاوية بن أبى سفيان (٤١-٦٠هـ/ ٦٦١-٦٧٩م)[6]. وقد زارها ابن بطوطة وعَدّها أكبر مدارس الحنفية بدمشق ، ولاحظ أن قاضى قضاة المالكية بدمشق يتخذها مكاناً للفصل فى قضايا الناس[7]. ومن مدرسيها: جمال الدين بن الحصيرى (ت ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م)[8]، وعماد الدين بن الطرسوسى (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)[9]، وشمس الدين بن التبانى(ت ٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[10].

- **المدرسة الإقبالية :**

---

(١) السابق : جـ١ ،ص٢٦٣.

(٢) ابن طولون الدمشقي : القلائد الجوهرية ، جـ١ ، ص١٨٨-١٨٩.

(٣) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٢٠٥.

(٤) المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٩٨.

(٥) تقع في سوق الخياطين ، و فيها ضريح نور الدين. (السابق : جـ١ ، ص٦٠٦ (هامش ٥).

(٦) السابق : جـ١ ، ص٦٠٧.

(٧) رحلة ابن بطوطة : ص١١٥. و لعل هذا من آثار سماحة نور الدين محمود (رحمه الله) الذي كان حنفي المذهب ، و يراعي مذهب الشافعي ، و مالك (رحمهما الله). النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٦٠٩.

(٨) المصدر السابق : جـ١ ، ص٦١٩.

(٩) السابق : جـ١ ، ص٦٢١-٦٢٣.

(١٠) السابق : جـ١ ، ص٦٢٥.

تنسب إلى الأمير جمال الدولة إقبال عتيق ست الشام بنت أيوب ، وأوقف عليها أوقافاًعديدة من ضياع ومزارع سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م[١]، وهى تقع بين بابى الفرج والفراديس شمال الجامع الأموى والمدرسة الظاهرية الجوانية ، و لصيقة بالمدرسة الجاروخية الشافعية[٢]، وتقع إلى الغرب من المدرسة الإقبالية الأخرى الشافعية التى أسسها –أيضاً– الأمير إقبال سنة ٦٢٨هـ/ ١٣٣٠م[٣].

من مدرسيها : شمس الدين العجمى (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) ، ونجم الدين الطوسى الحنفى (ت ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)[٤].

ومن مدرسى الحنفية الأخرى التى نشير إليها: المدرسة الجقمقية[٥]، و المدرسة القيمازية[٦].

- **من مدارس المذهب المالكى :**

✓ **المدرسة الشرابيشية :**

تنسب إلى نور الدين على الشرابيشى ، وتقع بدرب الشعارين لصيق حَمّام صالح شمال الطيوريين داخل باب الجابية . ووقف عليها أرضاً خارج باب الصغير أمام جامع جراح. بها دُفن ابنه أحمد (ت ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م)[٧]. وأول من دَرّس بها تاج

---

(١) السابق : جـ١ ، ص٤٧٤.

(٢) السابق : جـ١ ، ص٢٢٥.

(٣) السابق : جـ١ ، ص١٥٨-١٥٩.

(٤) النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس: جـ١ ، ص٤٧٦.

(٥) السابق : جـ١ ، ص٤٨٩.

(٦) السابق : جـ١ ، ص٥٧٢.

(٧) السابق : جـ٢، ص٧-٨.

الدين عبد الرحمن المعروف بـ(الزواوى)[1] ، ودرس بها – ايضاً – الذهبى ، و القاضى المالكى سالم بن إبراهيم المغربى (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)[2].

✓ **المدرسة الصلاحية :**

أنشأها الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م) ، وهى بالقرب من االبيمارستان النورى[3]. ومن مدرسيها : شرف الدين الهمذانى المالكى (ت (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)[4] وزين الدين المغربى (ت ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)[5].

✓ **من مدارس المذهب الحنبلى :**

• المدرسة الجوزية : تنسب إلى محيى الدين يوسف بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى (ت ٥٨٠– ٦٥٦هـ/ ١١٨٤- ١٢٥٨م)[6]، وهى بسوق القمح بالقرب من الجامع الأموى وقال البعض : إنها فى سوق النشابين بدمشق[7].

تعد هذه المدرسة من أحسن المدارس[8]، وتولى التدريس بها بعض العلماء الكبار، منهم : شرف الدين حسن المقدسى (ت ٦٥٩هـ/ ١٢٦١م)[9]، وتقى الدين

---

(١) السابق : جـ٢ ، ص٨ (و أضاف : و قد مرت ترجمته في المدرسة التي قبلها). و بالعودة إليها و هي (الزاوية المالكية) لم نجد المذكور ، فلعله اختلط الأمر على المؤلف بين (تاج الدين عبدالرحمن الزواوي) ، و (جمال الدين يوسف الزواوي ت٦٨٣ه/ ١٢٨٤م) الموجود في : المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص٥.

(٢) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص٢٦٠.

(٣) النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص١٠.

(٤) السابق : جـ٢ ، ص١٦.

(٥) السابق : جـ٢ ، ص١٩.

(٦) السابق : جـ٢ ، ص٢٩- ٣٠.

(٧) السابق : جـ٢ ، ص٣٠.

(٨) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢٤.

(٩) النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص٣٢.

المقدسى (ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥م)[١]، وبرهان الدين بن مفلح رئيس الحنابلة (ت ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م)[٢].

هذا ، وقد تعرضت المدرسة الجوزية للحريق سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م ، ضمن حادث جلل أصاب عدداً من أسواق الحريريين ، والقواسين ، والسيوفيين ، والصَّرّافين ، وبعض النحاسين ، ووصلت النار إلى حائط الجامع الأموى ، وقرب المدرسة النورية ، وغيرها[٣]

- **المدرسة العمرية :**

تنسب إلى الشيخ أبى عمر الكبير (ت ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م) والد قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى ، وهو من الأولياء المشهورين . تقع فى الجبل وسط دير الحنابلة[٤] الحنابلة[٤] وكان أبو عمر نزل مسجد أبى صالح بظاهر باب شرقى ، ثم صعد الجبل وبنى الدير ، ونزل وهو و آله بسفح جبل قاسيون وعرفوا بالصالحين ؛ لنزولهم بمسجد أبى صالح بعد قدومهم من القدس ، لا لأنهم صالحون ونسبت هذه البقعة إليهم ، فعرفت بـ(الصالحية) على حد تعبير أبى عمر رحمه الله[٥] وهذه المدرسة وقف على القرآن والفقه، وحفظ فيها القرآن أمم لا يحصون[٦].

ومن مدرسى العمرية الحنبلية : عز الدين المقدسى (ت ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م)[٧] ، وجمال الدين المقدسى (ت ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م)[٨].

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ، جـ٢ ، ص٨٣ ، و النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص٣٥.

(٢) المصدر السابق : جـ٢ ، ص٥٩-٦١.

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق و تعليق : د.حسن حبشي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) بالقاهرة ، ١٩٩٤م ، جـ٢ ، ص١٤.

(٤) النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص ١٠٠.

(٥) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٣ ، ص٦٤-٦٦.

(٦) النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص١٠١.

(٧) المصدر السابق : جـ٢ ، ص١٠٦.

(٨) النعيمي : الدارس: جـ٢ ، ص١١٠-١١١.

ومن مدارس الحنابلة الأخرى : المدرسة الضيائية المحاسنية[1] والمسمارية[2].

- **مدارس الطب :**

- **المدرسة الدَّخْوارية :**

تنسب إلى مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد المعروف ب(الدخوار)، وتم إنشاؤها سنة ٦٢١هـ / ١٢٢٤م ، وتقع بسوق الصاغة العتيقة قرب قصر الخضراء قبلي الجامع الأموى [3].

كان صاحب المدرسة أول من دَرّس بها [4]، وانتهت إليه معرفة الطب ، وألّف فيه فيه مصنفات عديدة ، منها: (اختصار الحاوى)، و(تعاليق ومسائل فى الطب) ، و(مقالة فى الاستفراغ)[5] ، وتخرج به جماعة كبيرة من الأطباء ، منهم : ابن السويدى الطبيب (ت ٦٩٠هـ/ ١٢٩١ م) ، الذى برع فى الطب ، وصنّف فيه ، وأبدع [6].

حظى الدخوار عند الحكام ، وعالج حالات مرضية عديدة ، وأصيب بخرس فى أواخر أيامه ، لم يفلح فى علاجه بكل السبل ، وساءت حالته . توفى سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م)[7].

من مدرسى هذه المدرسة : علاء الدين بن نفيس (ت ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م) [8] وأمين الدولة بن داود (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) ، الذى كان رئيس الأطباء ، ومدرسهم مدة فى دمشق[9].

---

(١) السابق : جـ٢ ، ص٩٩.

(٢) السابق : جـ٢ ، ص١١٤.

(٣) النعيمى : الدارس ، ج٢ ،ص١٢٧ .

(٤) نفسه .

(٥) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٨ ، ص ٣٨٣ (رقم ٣٩٦).

(٦) المصدر السابق : ج٦ ، ص١٢٣ – ١٢٤ (رقم ٢٥٥٨) .

(٧) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١٢٧ – ١٢٨ .

(٨) المصدر السابق : ج٢ ، ص١٣١ .

(٩) السابق : ج٢ ، ص١٣٢.

• **المدرسة الدنيسرية :**

تقع هذه المدرسة غرب باب البيمارستان النورى و المدرسة الصلاحية بآخر الطريق[١].

أسس هذه المدرسة الفقيه الشافعى الطبيب الحاذق عماد الدين محمد بن عباس الدنيسرى ، وخدم الأكابر والوزراء . ومن مؤلفاته الطبية: (المقالة المرشدة فى درج الأدوية المفردة) ، وأرجوزة فى (الترياق الفاروق). توفى سنة ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م[٢].

كان الطبيب ابن صغير (ناصر الدين المصري) من أطباء السلطان الناصر محمد ابن قلاوون (ت٧٤١هـ / ١٣٤١م) ، وحضر من القاهرة إلى دمشق ، متوجهاً على خيل البريد لمداوة الأمير علاء الدين الماردانى نائب حلب، لكن المرض تمكن منه ، فعاد ناصر الدين إلى دمشق مريضاً ، وظل يعالج فى مدرسة الدنيسرى قريباً من خمسين يوماً، وهو الطبيب المنتسب إلى بيت كلهم أطباء ، وكان لا يعالج إلا أصحابه ، أو بيت السلطان.

توفى بالطاعون فى القاهرة سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م[٣]

من مدرسى هذه المدرسة : جمال الدين الباجريقى (ت٦٩٩هـ / ١٢٩٩م)[٤]، ومن مدارس الطب الأخرى : المدرسة اللُّبوديّة النجمية[٥].

ملاحظات على مدارس دمشق :

١- يلاحظ – من العرض السابق – أن المدارس الدينية كثيرة ومنتشرة فى دمشق فى فترة البحث ، ومتنوعة (لدراسة القرآن وقراءته – دراسة الحديث وروايته – دراسة الفقه على المذاهب المختلفة المشهورة) ، وأحياناً تجمع المدرسة الواحدة بين القرآن والحديث ، وقد يدرس فى المدرسة الفقهية الواحدة أكثر من مذهب فقهى .

---

(١) السابق : ج٢ ، ص١٣٣.

(٢) السابق : ج٢ ، ص١٣٤.

(٣) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١ ، ص٢٥٨ (رقم ١٦٣).

(٤) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١٣٤-١٣٥ .

(٥) المصدر السابق : ج٢ ، ص١٣٥ .

٢- تفوقت مدارس الشافعية على الحنفية من حيث العدد ، بينما قلت مدارس المالكية وتأخرت مرتبتها ، وزادت عليها مدارس الحنابلة ، لاسيما أن صالحية دمشق يسود فيها المذهب الحنبلى . وعلينا أن نضع فى اعتبارنا أن النعيمي لم يحص كل المدارس بدمشق ، فثمة مدارس سنشير إليها فى نقاط تالية من البحث ، لم يتطرق إليها النعيمى .

٣- تبين لنا أن تعلم الفقه مثّل ضرورة لمن يتصدى للتعليم والتدريس ، فمعظم الفقهاء عملوا بالتدريس فى مدارس دمشق المختلفة[١]، حتى إن بعض الأطباء فى مدارس الطب – على قلتها[٢]– كانت لديهم ثقافة فقهية ، والفقهاء كانوا يَغْشَوْن مجالس العلم ويشاركون فيها بالحضور ، خاصة عند افتتاح المدارس الجديدة ، كما سنرى لاحقاً . ولا ينافس الفقه إلا الحديث وسماعه ؛ لذلك كان الإقبال عليه كبيراً ؛ ولذلك نُصح السخاوى من أحد شيوخه ، عندما رآه يصرف همته لسماع الحديث ، أن يعطى قدراً من جهده ووقته للفقه؛ لأنه رأى بفراسته أن علماء مصر(فقهاءها) سينقرضون، وسيُحتاج إليه ، فلا يقصر فى حق نفسه وأمته ، فنفع الله السخاوى بهذه النصيحة الغالية ، وترحّم على صاحبها[٣].

٤- ظهر فى دمشق ما يمكن تسميته ب(مدارس القضاء) ، فالمدرسة كانت مكاناً مشتركاً ، يجمع بين التدريس ، والقضاء [٤] (كما سنبين ذلك لاحقاً) ، فشهاب الدين الباعونى (ت٨١٦هـ / ١٤١٣م) درّس الفقه والتفسير فى مدارس القضاء[٥].غير أن أن البعض كان يعمل مدرساً فى مدارس عدة دون أن يتولى منصب القضاء فى هذه

---

(١) أشار إلى كثرة تكالب الفقهاء على التدريس بمدارس دمشق المختلفة ابن كثير فى: البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٣١١(سنة ٧٦٣ه / ١٣٦١م) ، وسعود محمد العصفور : الحياة الثقافية فى دمشق فى عصر المماليك الجراكسة ، رسالة دكتوراه بآداب عين شمس ، سنة ١٩٩٥م ، ص٢٣٨.

(٢) د. أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى ، ج٥ ص١١٧-١١٨.

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص٧٣.

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٢٤٧.

(٥) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٢٣.

المدارس ، فتكون وجهته نحو التدريس فقط ، لا يجمع بينه وبين القضاء فى آن (مثل: تاج الدين السبكى ت ٧٧١هـ / ١٣٦٩م)[١] ، وبلغ من حب بعض العلماء للعلم تفضيلهم مهنة التدريس على منصب القضاء[٢].

٥- لم نجد مدارس مختصة بالتفسير ، ولا بأصول الفقه ، ولا العقيدة ، ولا علوم اللغة والأدب ، ولا التاريخ الإسلامى ، ولا علوم المنطق والفلك والحساب ، إضافة إلى ندرة مدارس الطب . وهذا أمر يحتاج إلى تفسير ، وفى تقديرى أن علم التفسير كان يمثل قاسماً مشتركاً فى كثير من المدارس – كما سنرصد ذلك فى تناول المقررات الدراسية فيما بعد – ولا تخلو مدارس القرآن ، والفقه من تفسير آيات القرآن والاستدلال بها، وأيضاً لا تخلو مباحث الفقه ومناقشاته من علم الأصول ، وكل حلقات العلم لا يمكن أن تغفل بناء العقيدة الصحيحة فى النفوس من خلال القرآن والسنة الصحيحة ، كما أن تفسير القرآن لا يخلو من دراسة لغته وبلاغته ، وإعرابه والاستشهاد بالشعر والنثر مسألة واردة جداً ، كما أن السيرة النبوية كانت تدرس ، ولعلها أقرب إلى حلقات المساجد منها إلى الدراسة المنتظمة فى المدارس . إذن اهتم القائمون على العلم – فى فترة البحث – بالعلوم الرئيسة وأسسوا لها المدارس ، وأتت العلوم الأخرى تبعًا لها ، فمثلاً : داخل المدرسة الناصرية الجوانية الشافعية يوجد شيخ لتدريس النحو [٣].

أما بالنسبة لقلة المدارس المختصة بالعلوم الطبيعية والرياضية[٤]؛ فربما لأن الطب الأهم فيه الناحية التطبيقية العملية ، التى تعتمد على مزاولة المهنة ، وعلاج المرضى بعد

---

(١) المصدر السابق : ص١٠٤.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٤٦٦(سنة٧٩٥ه/ ١٣٩٢م).

(٣) النعيمى : الدارس ،ج١ ، ص٤٦٦.

(٤) رغم هذه القلة ، فإننا نفاجأ بالنعيمى يضع المدرسة الجاروخية ، وهى من المدارس الطبية ، التى وجد بها فقهاء شافعيون أطباء ، مثل : نجم الدين بن الشحّام (ت٧٣٠ه/ ١٣٢٩م) . (الصفدى: الوافى بالوفيات ، ج١٨ ،ص ٣٢٧-٣٢٨(رقم ٣٨٤) ، وابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، تصحيح : سالم الكرنكوى ، دار الجيل – بيروت ، ١٩٩٣م ، ج٢ ص٣٥٦). أقول : رغم أن المدرسة الجاروخية طبية إلا أن النعيمى فى : الدارس، ج١ ، ص ٢٢٥، أوردها فى (مدارس الشافعية) ، فالفقه والعلوم الدينية طاغية على ما سواها .

تشخيص أمراضهم فى البيمارستان ، فلعل المدارس كانت تركز على المعلومات النظرية الطبية[١]، وهى تأتى فى المرتبة التالية ، فلم يجدوا أنفسهم فى حاجة للتوسع فى تأسيس مدارس الطب. ولعل الرياضيات تدرس فى مدارس الطب.

أما بالنسبة للمنطق مثلاً ، فهناك من كان يدرسه فى المدرسة القايمازية[٢]، وهى مدرسة فى الفقه الحنفى ، فلعله يدرس تابعاً للقياس وعلم الأصول عموماً ، على اعتبار تغليب المذهب الحنفى لجانب الرأى . ويقاس على هذا أكثر من عالم يتقنون علم المساحة، ويتتلمذ الطلاب عليهم[٣]، وآخرون لا نعلم تدريسهم لهذه العلوم رغم تميزهم[٤]، فربما لا يتصدون للتدريس الرسمى فى المدارس ، ويكتفون بحلقات علمية فى بيوتهم .

٦- لوحظ من مواقع بعض المدارس أنها كانت تختار بعناية فى أماكن هادئة قريبة من بعض الأنهار ، أو فى أماكن جبلية بعيدة عن الضوضاء والزحام (كما فى صالحية دمشق) ، لكن فى مواضع عديدة كانت تقام قريباً أو وسط الأسواق . ولى ملاحظة على مدى توفر الأمن داخل هذه المدارس وعلى أبوابها وفى محيطها ، مفادها أن الأمن منعدم أو يكاد ، وعلى ذلك شواهد عديدة مطردة ، مثل : عدم وجود سقف للمدرسة الأمينية إلا ما يتصل بالإيوان الغربى منها[٥]، واحتراق جزء منها بفعل النصارى[٦]،وقتل مدير المدرسة الظاهرية مدرساً بها سنة٧٠١هـ/ ١٣٠١م[٧]، وقتل

---

(١) ولعل من هؤلاء (محمد بن عمر بن المرحل المعروف بابن الوكيل) المتوفى سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م ، وكان عالماً بالطب النظرى دون ممارسة المهنة عملياً. المقريزى: المقفى ، ج٦ ، ص٤٣٩.

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٢٧.

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٥٢.

(٤) المصدر السابق : ج١ ، ص١١١ ، ١١٦.

(٥) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٠٢.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص١٩٨(٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م).

(٧) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٩ ، ص٤١٢.

رجل خَمّار سكران أحد المدرسين ؛ لتسببه فى عقاب الوالى له من قبل[1]، والعثور على جثة سيدة مقتولة على حصيرة بمدخل باب المدرسة الإخنائية[2]، ووجود قتيل آخر عند المدرسة الخاتونية دون معرفة القاتل[3]، ووجود أكثر من قتيل عند أبواب المدرسة المدرسة البادرائية ، والزنجيلية[4].

ثانياً – القائمون على شئون مدارس دمشق :

الحديث عن هذه الجزئية يجعلنا نتطرق للحديث عن الوظائف المختلفة الموجودة فى المدارس الدمشقية كالمناصب التعليمية (مدرسين ، وهيئة معاونة) ، وهذه تأتي عند الحديث عن (عناصر العملية التعليمية) ، والمناصب الإدارية ، والفنية اللازمة لأداء المدرسة دورها على خير وجه . لكن هذه الكوادر الإدارية والفنية تحتاج إلى توفير الإمكانات ، التى تيسر لها النهوض بالمدرسة ، ومن هنا ينقسم الحديث إلى :

١- بيان جانب من الإمكانات الموجودة بالمدارس :

- **المدرسة العمرية الحنبلية[5]:**

لكل واحد من نزلائها رغيفان ،الإ المدرس أو المقريء فله ثلاثة أرغفة يومياً طوال العام ، وقميص فى كل عام ، وأكل اللحم طوال شهر رمضان ، وتوزيع الزبيب كل عام وختان الفقراء والأيتام النازلين بها ، ثم انقطع ذلك بعد مدة ، وسَخّانة يسخن فيها الماء شتاء لاغتسال المحتلمين ، ومشبك بعسل فى ليلة العشرين من رمضان،وكنافة إلى النصف من رمضان ، وقنديل يضيء مقصورة المدرسة ، وحلاوة

---

(١) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص١٧٩ (سنة٧٨٧ه/ ١٣٨٥م).

(٢) ابن طوق : التعليق (يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق ، مذكرات كتبت بدمشق أواخر العهد المملوكى ٨٨٥-٩٠٨ه/ ١٤٨٠-١٥٠٢م) ، تحقيق: جعفر المهاجر، المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق،٢٠٠٠م،ج١ ص٣٢٩(سنة٨٨٩ ه/ ١٤٨٤م).

(٣) المصدر السابق : ج٣ ، ص١١٩٨ (سنة ٨٩٨ه/ ١٤٩٢م).

(٤) المصدر السابق : ج٣ ، ص١٢٨٨ (سنة٨٩٩ه/ ١٤٩٣م).

(٥) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١١١-١١٢.

توزع فى شهر رجب ، ولوزية وجوزية وغيرها فى نصف شهر شعبان ، وأضحية فى عيد الأضحى ، وطعام يقدم فى عيد الفطر(حامض ، ولحم ، وهريسة، وأرز، وحلوى).

ويضاف إلى ما مضى - فى المدرسة نفسها – وجود مطبخ بالمدرسة ، وميضأة كبرى ، وخزائن للكتب موقوفة على رواد المدرسة من بعض العلماء ، إلى جانب نسخة من مصحف بخط الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنه)[1].

- **دار القرآن الدلامية بالصالحية :**

صرف عشرة دراهم شهرياً لكل يتيم من الأيتام الستة ، الذين يلتحقون بالمدرسة ، وكذلك يصرف لهم جُبَّة قطنية ، وقميص ومنديل (لكل واحد منهم)[2] ، ووفّر للزيت - فى كل عام- ستين درهماً ، وللشمع لقراءة البخارى والتراويح مائة درهم ، ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلوى ، ورأسَيْ غنم أضحية[3].

* إمكانات متفرقات فى بعض المدارس (يغلب على الظن توفرها فى معظم المدارس):

- وجود إمكانات لتنظيف المدارس[4]، وإيوان (قاعة يتلقي فيها الطلاب دروسهم) ، وقد يوجد أكثر من إيوان بالمدرسة كما رأينا من قبل – يستخدم أحدها لاستقبال بعض العلماء ، ويجيء الأعيان للسلام والتهنئة ، كما حدث فى المدرسة العادلية عند نزول علم الدين الإخنائى بإيوانها[5]- وجود شمع وقناديل لإضاءة

---

(١) ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص٢٧٢- ٢٧٤.

(٢) المصدر السابق : ج١ ، ص١٢٥.

(٣) النعيمى : الدارس ، ج١، ص١٠ .

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، تحقيق: محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٢م ج٩،ص٤٠(سنة٧١٥هـ/ ١٣١٥م) ، حين تم إبطال ما كان يُجْبَى من البيوت والمدارس وغيرها مقابل إزالة القاذورات والنجاسات من حماماتها).

(٥) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص٩٣.

المدارس ليلاً[1]- وجود تخوت يجلس عليها الطلاب[2]- وجود ساعات على باب المدرسة القيمرية ، وإصلاحها بعد تعطلها طويلاً[3]-وجود مفروشات تفرش داخل المدرسة الإخنائية[4]والاكتفاء بحصيرة عند مدخلها[5]- وجود حمام كما فى دار الحديث الحديث الأشرفية[6]- وجود المياه بكثرة فى دمشق ؛ لكثرة أنهارها ، وجريان الماء فى القنوات ، ثم يخرج منها فى أنبوب إلى حوض يشرب منه ويستقى الوارد والصادر ، والمياه موجودة بغزارة فى برَك بالمساجد ، والمدارس متصلة بميضأة داخلها[7]- وجود قباقيب* يلبسها سكان المدَرسة عند دخول الحمام ، وقد تعرض أحد صانعيها بإحدى المدارس للظلم وحُبس دون ذنب[8]- وجود طاحونة لطحن القمح؛ تمهيداً لعمل الخبز بالمدرسة الركنية[9]- توزيع الخبز على الفقهاء بالمدرسة الشامية البرانية بانتظام ، الإ أن ظروفاً مادية – فيما يبدو- أوقفت توزيعه مدة خمس سنوات ، حتى أعيد ثانية سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤ م[10]- مع توفر المياه بالمدارس ، والحرص على نظافتها وجمالها.

---

(١) المقريزى : المقفى ، ج١ ، ص٧١٨.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٣٣ (تم فى المدرسة العادلية الكبرى بعد تجديدها سنة ٧٠٤ه / ١٣٠٤م).

(٣) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص١٨١ (سنة٧٨٨ه / ١٣٨٦م).

(٤) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٣٧٨ ، (سنة ٨٨٩ه/ ١٤٨٤م).

(٥) المصدر السابق : ج١ ، ص٣٢٩ ، (سنة ٨٨٩ه/ ١٤٨٤م).

(٦) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٩ .

(٧) ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٢٩(من واقع مشاهداته فى دمشق).

* القباقيب : جمع قَبْقَاب ، وهو النعل التى تُتخذ من خشب وشراكها من جلد أو نحوه (إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، : ق . ب . ق . ب)، ج٢ ، ص٧٣٨).

(٨) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١٠٢(سنة٨٨٦ه/ ١٤٨١م).

(٩) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٨٤ (سنة٨٨٩ه/ ١٤٨٤م).

(١٠) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص٥٤٤.

وردت نصوص تفيد وجود حديقة ببعض المدارس ، تتم زراعتها والعناية بها[1]– وجود خزينة بالمدرسة ، تحفظ بها أموالها التى ينفق منها على المرتبات وغيرها[2].

٢- جانب من الوظائف الإدارية والفنية والدينية بالمدارس:

– ثبت من النصوص تخصيص خلوة (مكان) للكتب[3]، وهذا يعرف ب(المكتبة) ، وهى تحتاج إلى خازن للمكتبة[4].

– الحاجة إلى عمال يقومون على مخازن الأطعمة والأشربة ، ويقومون على تنظيف المدرسة ، والعناية بحديقتها[5].

– إمام المدرسة : يؤم الطلبة والمدرسين فى الصلوات المختلفة ، كما فى المدرسة القواسية [6]، والقيمرية[7].

---

(١) مثل: حديقة المدرسة القيمرية (ابن طوق : التعليق ، ج١ ،ص٤٣١– سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، والمدرسة البادرائية البادرائية (المصدر السابق : ج١ ، ص٢٩١ ، سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ، والنص على زراعة المشمش بها فى : السابق : ج٢ ، ص٩٣ ، سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م).

(٢) السابق : ج١ ، ص١٠٢ ، (بالمدرسة البادرائية سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م).

(٣) كما فى (المدرسة الضيائية). (ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٣٩–١٤٠). وكذلك المدرسة المدرسة الحنبلية (النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص٧٩)، والمدرسة الصدرية التى وقف عليها ابن قيم الجوزية كتبه (المصدر السابق : ج٢ ، ص٩٠–٩١).

(٤) كما فى المدرسة النورية وغيرها ، حيث توجد وظيفة : خازن الكتب (ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٢ ، ص٨٤– سنة٨٠١هـ/ ١٣٩٨م). ويمكن معرفة تفاصيل عمل خازن الكتب ، وما يتصل بالمكتبة ونظام الاستعارة ، وأهمية المكتبة فى العصر المملوكى (وهى متشابهة الوظائف فى مصر والشام) فى : د. زبيدة محمد عطا : مكتبات المدارس " خزانة الكتب" فى العصرين الأيوبى والمملوكى) ، بحث نُشر فى كتاب بحوث ندوة (تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، سلسلة تاريخ المصريين (رقم ٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م ، ص٢١١ ، ٢٢٠– ٢٢٣.

(٥) اكتفت المدرسة الدلامية للقرآن بعامل واحد مقابل راتب سنوى بلغ ستمائة درهم . (النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٠).

(٦) كما فى المدرسة القواسية ، التى ولى إمامتها وسكناها طويلاً تقى الدين اللوبيانى (ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م). (المصدر السابق : ج١ ، ص٣٩٥).

(٧) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص٢٥٤ (سعد بن يوسف الشافعى المتوفى سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م).

وفى دار القرآن الدلامية: كان الإمام يحصل على مائة درهم شهرياً يضاف إليها عشرون درهماً مقابل تعليمه ستة من الغرباء المهاجرين الفقراء قراءة القرآن ، ويخصص شيخ لتعليم ستة من الأيتام القرآن فى مكتب خاص بهم فى المدرسة مقابل حصوله على ستين درهماً شهرياً ، كما يؤتى بشيخ قارىء لصحيح البخارى كل ثلاثة شهور مقابل مائة وعشرين درهماً يكون هو إمام المدرسة ، ويكلف – أيضاً – بالقراءة على ضريح الواقف (صاحب المدرسة) ، ويوجد قارىء يقرأ قرآنا فى كل ثلاثاء مقابل ثلاثين درهماً شهرياً. وللمدرسة الدلامية ناظر [1]، يحصل على ستين درهماً فى الشهر ، وهناك القيّم[2]وهو البوّاب والمؤذن . وأخيراً ، وجود قارىء للميعاد[3]، وعلى أرباب الوظائف بالمدرسة حفظ حزب الصباح والمساء لابن داود ، يداومون على قراءته بعد صلاة الصبح والعصر[4]وفى (المدرسة الصابونية) : اشترط الواقف وجود وظيفة جديدة ، وهى وظيفة الخطيب الذى يخطب الجمعة فى مسجد المدرسة ، على أن يكون شافعى المذهب ، وجعل للإمام قاعة بالمدرسة لسكنه وعياله ، وجعل للمنارة ستة

---

(١) الناظر : بمنزلة المدير العام للمدرسة ، فيباشر شئونها ، ويؤجر عقاراتها، ويشترى ما يلزمها ، ويقوم بترميمها ، ويعطى للموظفين رواتبهم ، ويخصم منها بمقدار تخلفهم ، ويزيدهم إذا زادت غلة الأرض الموقوفة على المدرسة مثلاً ، وتقل مرتباتهم إذا قَلَّتْ ، وكثيراً ما ينهض المدرس بهذه الوظيفة إلى جانب التدريس . (محمد أحمد دهمان ، مقدمة تحقيق القلائد الجوهرية لابن طولون الدمشقى ، ج١ ، ص٢٣).

(٢) تطلق – فى نظرى – غالباً – على القائم على شئون المدرسة ، فكأنها تساوى الناظر ، أو المدير ، أو المباشر (ومنها: ابن قَيّم الجوزية صاحب كتاب : (زاد المعاد) ، لكن الواقف هنا اشترط شرطاً خاصّاً – فى المدرسة الدلامية – أن يكون القيم مقتصراً على عمل بواب المدرسة ، ومؤذنها ، وللمدرسة ناظر له عمل آخر .

(٣) يقصد به ذلك الشيخ ، الذى يقوم بوعظ الناس مواعظ مؤثرة فى القلوب ، وقد يضاف إليها رواية بعض الأحاديث (ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٨٠) ، وقد تكون السيرة النبوية خاصة الغزوات (كغزوة بدر مثلاً) موضوعاً للميعاد (السخاوى : الضوء اللامع ، ج٩ ، ص١٨٣) ، ولا تكون المواعيد متتابعة كل يوم ؛ ربما منعاً للملل، فتكون مرة أو مرتين أسبوعياً (ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٢٥ ، حاشية رقم١). ويبدو أن انتشارها فى العصر المملوكى ، جعلها تتخذ شكلاً رسمياً له قواعده ، فوجد ما يعرف ب(مشيخة الميعاد فى مصر). (المقريزى : السلوك ، ج٤، ق٣ ، ص١١٠٧ – سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) ، ولعلها كانت موجودة بالشام أيضاً.

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٩– ١٠.

مؤذنين واتخذ بالمدرسة قيّمًا ، وبواباً ، وفراشاً ، وجابياً للوقف [١]. وهكذا تستحدث كل مدرسة ما تراه من الوظائف.

وفى المدرسة التنكزية للقرآن والحديث استحدثت وظائف أخرى [٢]، مثل : كاتب الغيبة[٣] وله عشرة دراهم شهرياً ، و المشارف [٤] له أربعون درهماً شهرياً ، وشهادة العمارة [٥] بخمسة وعشرين درهماً شهرياً ، ونيابة النظر[٦]لها أربعون درهماً ، والنظر مائة درهم

عند دراسة المدرسة الشامية البرانية ، لاحظت وجود وظيفة (كاتب) [٧] ، ولعله المسئول عن تسجيل بيانات المدرسة وحساباتها فى سجلاتها الرسمية .

وأخيراً ، فقد لاحظت – أيضاً – أهمية منصب ناظر المدرسة ، ووجوده فى عدة مدارس [٨]؛ إذ لايتصور خلو مدرسة ما منه ، ويصدر به مرسوم رسمى [٩] ، ويتهافت

---

(١) المصدر السابق: ج١ ، ص١٥.

(٢) المصدر السابق : ج١ ، ص١٢٧.

(٣) موظف مختص بكتابة اسم من يتخلف عن الحضور ، ويرفعه إلى الناظر أو نائبه ، فيخصم من راتبه بمقدار تخلفه، إن كان فى ذلك مصلحة . وفى الدرس – عند قراءة كتاب – يكتب اسم الطالب الغائب ، واسم الباب الذى فاته. (محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيقه لكتاب ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية) ، ج١ ، ص٢١. ومعنى ذلك أن الإقامة الداخلية ليست إجبارية على الموظفين والطلاب.

(٤) هذا منصب معروف ، وقد يأتى بصيغة الجمع إذا تعدد القائمون به ، كما فى (المدرسة اللُّبودية فى الطب). النعيمى: الدارس ، ج٢ ،ص١٣٧ (المشارفون). والبعض يطلق عليها : المشارفة ، وهى أن يشرف على أمور المدرسة كالنظافة أو الخدمة ، وأمثالها . (محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيقه لكتاب ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية) ، ج١ ، ص٢٢.

(٥) الشهادة – عموماً – منصب أعلى من الناظر أو نائبه ، حيث يقوم الشاهد بمراقبتها فى البيع والشراء ، والاستئجار، والعطاء ، ويسجل شهادته على الصكوك (المستندات المالية) ، والعقود . المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٢-٢٣) . وواضح أن الشاهد هنا يقوم بمراقبة الشئون المعمارية بالمدرسة ، والتى يضطلع بها الناظر . وهكذا توجد رقابة داخلية فى المدارس ؛ لضبط شئونها .

(٦) هى وكالة النظر ، حيث ينوب عن الناظر فى عمله – لظروف ما – من يراه أهلاً للنظارة ، موثوقاً به. (السابق : ج١ ، ص٢٣).

(٧) ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان ، وضع الحواشى : خليل المنصور، دار الكتب العلمية – – بيروت ، ١٩٩٨م ، ص٢٥.

(٨) فى المدرسة الرواحية (ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٣٧-٣٨، والشامية البرانية (ابن قاضى شهبة: تاريخه ، ، ج٣ ، ص٦٤٩) ، والشامية الجوانية (المقريزى : درر العقود ، ج٢ ، ص٣٧٤) ، والمدرسة الشبلية (محيى الدين القرشى : الجواهر المضية فى طبقات الحنفية، تحقيق : د. عبد الفتاح الحلو ، مطبعة عيسى الحلبى ، ١٩٧٨م، ج٢، ص٥١٨-٥١٩).

(٩) ابن قاضى شهبة: تاريخه ، ج٣ ، ص٦- سنة٧٨١ه/ ١٣٧٩م.

ويتهافت البعض على شغله ؛ سعياً وراء ميزاته الأدبية والمادية أحياناً [١] ، فيتولاه من ليس له بأهل ، ثم ينزل عنه [٢] أو يلجأ البعض لإظهار الاستعداد لدفع رشوة للوصول إليه[٣]، وقد يتهم الناظر والكاتب ببعض المخالفات ، وتصدر عن بعض المشرفين ألفاظ لا تليق ؛ اعتراضاً على ضآلة الراتب [٤]

***

ثالثاً – تعدد وظائف مدارس دمشق : أقصد بالوظائف: المهام والخدمات ، التى تقدمها المدرسة للعلم وللمتعلمين خاصة، وللمجتمع عامة . وباستثناء التدريس، الذى سنفرد له مبحثاً مطولاً تالياً ، فإن المدرسة كانت مكاناً مهمّاً، أُحسن استغلاله فى تقديم خدمات جليلة متعددة متشعبة بما لا يخل بالدور الرئيسي (التعليم) المنوط بها ، ويمكن بيان ذلك فى النقاط المحددة الآتية:

– المدرسة مكان لقراءة تقليد ولاية القضاء [٥] ، وبها تجرى مراسم تولية القاضى[٦]، ثم فيها تمارس أعمال القضاء (الفصل فى القضايا [٧] – أداء الشهادات [٨])، [٨])، وهى مكان لسكنى القضاة [٩].

---

(١) زاد راتب مباشرة المدرسة العذراوية ثمانين درهمًا شهرياً (المصدر السابق ، ج٣ ، ص٤٦٦ – سنة٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م).

(٢) باشر جندى نظر المدرسة البادرائية ، والمارستان ، ثم نزل عنهما أخيراً. (السابق : ج٤ ، ص٣٨٤ ، سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م).

(٣) عرض أحدهم دفع رشوة لتولى نظارة المدرسة العذراوية ، ثم لم يوف بما وعد ، فعوقب بالضرب ، وحُرم من ولاية منصب آخر كان يسعى إليه . (السابق : ج٣ ، ص٣٠ ،٣٢).

(٤) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٥١٢(سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م).

(٥) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص٩٢.

(٦) كما فى العادلية الكبرى (النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٦٦).

(٧) مثل : ممارسة أعمال القضاء فى المدرسة الجوزية (المصدر السابق:ج٢ ، ص٣٨– ٤٠)، والحكم فى إحدى قضايا الدَّيْن (ابن طوق : التعليق : ج١ ، ص١٠٤ ، سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م).

(٨) المصدر السابق : ج٣ ، ص١١٠٨ .

(٩) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ص٨٦– ٨٧ ، ٩٣.

- بالمدرسة مكتب لتحفيظ الأيتام القرآن[1]، وامتحان البعض فيه[2]، وتفقيه الأولاد[3].

- المدرسة مكان يمارس المحتسب فيه عمله أحياناً[4].

- المدرسة مأوى ومستقر لاستقبال بعض الغرباء الوافدين [5]، أو الشاكين [6] ، ، وكذلك تدفن بها بعض الشخصيات المعروفة [7] ، وبها أماكن وقاعات خالية لسكنى الطلاب وغيرهم[8] ، وعقد الطلاق [9].

- بالمدرسة يتم الاحتفال ببعض المناسبات الاجتماعية ، كعقد القران [10] ، وإقامة ولائم العرس واحتفالاته [11]،.....

(١) النعيمى : الدارس ، ج١، ص١٣، وابن طوق: التعليق ، ج٢ ، ص٧٣٣(سنة٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م).

(٢) المصدر السابق : ج٢ ، ص٩٠٦، (سنة٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م).

(٣) السابق : ج٢ ، ص١٠٠٤ ، (سنة٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م).

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٥٩٢.

(٥) النعيمى : الدارس، ج١ ، ص٣٦٦ ، وابن طوق : التعليق: ج١ ، ص٢٥٤ ، ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م.

(٦) المصدر السابق : ج١ ، ص٢٤٨، سنة٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣م.

(٧) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، تحقيق: د. نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م ، ج٣ ، ص٢٥ (عمل تربة بالمدرسة النجيبية لآقوش بن عبد الله النجيبى) ، والنعيمى : الدارس ، ج١، ص٦٠٢(دفن جمال الدين بن القطب سنة ٨١٤هـ/ ١٤١١م بالمدرسة المقدمية البرانية مع صاحبها ، فاستنكر الناس ذلك).

(٨) عُبّر عنها بلفظة : (خَلاوى) ، التى قال عنها محقق كتاب (الدارس) ، جعفر الحسنى: جمع خَلْوَة ، وهو مخالف للقياس. (ج١ ، ص١٥ ، هامش١). وكأنها أماكن خالية لأغراض متعددة ، منها: سكنى الطلاب (ابن طوق : التعليق ، ج١، ص٧٣، سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، ص١٧٣(سنة٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م) وذلك فى المدرسة البادرائية.

(٩) المصدر السابق : ج٢ ، ص٩١٢ ، سنة٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م.

(١٠) عقد القران فى بيت الشيخ أعلى المدرسة الشامية البرانية (السابق ، ص١، ص١٠٩، ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م).

(١١) وذلك فى فناء المدرسة (السابق ، ج١ ، ص١١٠) ، وفى حديقة المدرسة الشجرية (السابق : ج١ ، ص٤٩٨ ، ٥٠٤ ، سنة٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م.

وحفلات الختان للأطفال اليتامى[١] ، والإصلاح بين المتخاصمين [٢].

– وبالمدرسة تقضى الحقوق المالية ، مثل : توزيع التركات[٣]، واستخراج أموال الأسرى[٤]، وتسجيل الأموال المقترضة[٥] ، وبحث مشكلات اقتصادية لتحديد سعر سعر صرف الفضة لحل مشاكل التجار [٦] ، ومصادرة أموال بعض الشخصيات [٧] وتحديد وزن العملة [٨] .

– وقد تمارس بالمدرسة بعض الأمور العلمية ، مثل كتابة الفتاوى الفقهية [٩] ، وبعض النواحى التعبدية والدينية ، مثل : إقامة الصلوات اليومية [١٠] ، وصلاة

---

(١) السابق : ج١ ، ص١٥٨ ، ٢٤٨ ، سنة٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م، وعبد الودود برغوت : جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق فى ق ١٥م – مخطوطة أحمد بن أحمد بن طوق) ، بحث نشر فى (المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام بالجامعة الأردنية – عَمّان، الدار المتحدة للنشر- بيروت ، ١٩٧٤م ، ص٤١٠-٤١٢.

(٢) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٢٨٤- سنة٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م(تم ذلك فى بيت الشيخ بالمدرسة البادرائية).

(٣) المصدر السابق : ج٢ ، ص٧٦٦- سنة٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م.

(٤) كأنما يعنى : نظر ديوان الأسرى وهو التحدث فى أمر الأوقاف ، التى تُفْدَى منها الأسرى.(القلقشندى: صبح الأعشى ، ج٤ص١٩١. راجع ما يتصل بالأسرى فى : ابن طوق: التعليق ، ج١ ، ص٦٧-٦٨ ، سنة٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ، ص١٨١ ، ١٨٩(٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م).

(٥) المصدر السابق : ج٢ ، ص١٠١٠ ، سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م.

(٦) المصدر السابق : ج١ ، ص٢٧.

(٧) المصدر السابق : ج١ ، ص١٨٢(سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م).

(٨) ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، ص٢٨(٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).

(٩) ابن طوق: التعليق : ج٢ ، ص٧٥٩(٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م).

(١٠) فى المدرسة الزنجيلية (المصدر السابق : ج٢، ص١٠٤٢، سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م).

الجمع[1] ، وصلاة التراويح فى رمضان[2] ، والصلاة على الجنائز [3]، وإعلان إسلام بعض أهل الذمة [4].

- وأحياناً تتخذ المدرسة مكاناً للسجن المؤقت ، وتوقيع العقوبات[5].

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية : ج١٤ ، ص١٧٢ (سنة٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م).

(٢) يؤم الناس فيها صبى فى السادسة ، يحفظ القرآن ، وذلك فى المدرسة الشامية البرانية (ابن كثير : المصدر السابق ، ج١٤ ، ص٢٣٢ ، ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م).

(٣) ابن طوق : التعليق، ج٢، ص١٠٤٢- ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م.

(٤) إعلان إسلام صبى يهودى مراهق ، حضر إلى المدرسة الدولعية ، ومعه أبوه وأمه ، ويهودى آخر (على هيئة الفرنج) ، وحكم القاضى بصحة إسلامه . (المصدر السابق ، ج٢ ، ص٦١١ (سنة٨٩١هـ/ ١٤٨٦م).

(٥) الترسيم على فتح الدين بن الشهيد بعد أن طولب بالمال فهرب ، ثم ظهر ، فطولب بالمال ، فرسم عليه (وضعه فى فى مكان موضع المراقبة ؛ تمهيداً لإنزال العقاب به) بالمدرسة العذراوية ، ثم بالدماغية ، ثم أُطلق .

(ابن حجر : إنباء الغمر) ، ج١ ، ص١٧(هامش ١) ، وص٢٥٦ – ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) ، وكذلك شخص طولب بالمال ، وحُبس بالعذراوية ؛ لأنه تعهد بالدفع ولم يدفع ، فعوقب بالضرب بها ، ثم أمر بنفيه . (المصدر السابق : ج١ ، ص٢٢٠ ، سنة٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م).

المبحث الثاني
عناصر العملية التعليمية في مدارس دمشق

العنصر الأول : المدرسون :

أولاً ــ من معايير اختيار المدرسين :

١ـ معايير عامة :

أ- المؤهلات : حسن التأهيل و الإعداد للفتوى و التدريس ، كما حدث في تأهيل ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) لابنه للفتوى و التدريس و هو دون العشرين[١]، و كما في حسن متابعة و إعداد والد تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) لابنه ، و حثه على مجالسة العلماء ، لاسيما المزِّيّ ، و الذهبي ؛ مما أهَّله – في النهاية – لأن يكون جديراً بمشيخة دار الحديث الأشرفية[٢]. و كذلك تلقى العلوم المختلفة من حديث ، و فقه ، و نحوها[٣]، و التلقي على كبار العلماء[٤]؛ مما يساعد على قراءة أمهات الكتب التراثية[٥]، و فهمها[٦]، و حسن شرحها[٧].

ب- الخبرة : أن تكون لديه خبرات تدريسية سابقة لسنوات في إحدى المدارس[٨].

ج- الكفاءة : أن تتضح كفاءته في القدرة على تصنيف المؤلفات الجيدة[٩].

---

(١) النعيمي : الدارس ، جـ ١ ، ص٧٦-٧٧.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، ص ٣٩٨- ٣٩٩ .

(٣) النعيمي : الدارس : جـ١ ، ص ١٣٤-١٣٥ .

(٤) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، ص٣٩٨- ٣٩٩ .

(٥) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، ص٢٣٩ (شمس الدين بن سامة الدمشقي الحنبلي) .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص٣٢١ ، سنة ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م : (يحب السّنة ويفهمها جيداً) .

(٧) ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١ ، ص٣٤- ٣٥ .

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص٣٢١ (نزل للتدريس بالمدرسة النجيبية ، وكان قد درّس قبلها لسنوات لسنوات بعد أبيه في الناصرية البرانية) .

(٩) راجع : مؤلفات قطب الدين الخيضري مؤسس ومدرس (الخيضرية) . (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٨) ، و مؤلفات تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) في : (المصدر السابق : جـ١ ، ص١٣٤-١٣٥) .

٢- معايير خاصة : و أقصد بها توفر الشروط الخاصة ، التي يشترطها الواقف فيمن يختار للعمل في مدرسته ، و من ذلك :

أ- أن يكون المدرس عَزَباً ؛ ليتفرغ للتدريس ، و لا تدخل المدرسة (البادرائية) امرأة ، و ألا يجمع بين التدريس في هذه المدرسة و غيرها من المدارس[١] (ضماناً لإجادة العمل).

ب- أن يقيم المدرس بالمدرسة[٢] (ضماناً لاستقراره ، و قربه من الطلاب).

ج- أن يكون المدرس أعلم فقهاء المذهب الحنفي (في المدرسة القصاعية الحنفية) [٣].

د- أن يكون المدرس قاضياً شافعيّاً[٤].

ملاحظة :

بالنظر إلى المعايير العامة و الخاصة السابقة ، ثبت أنها جيدة ، و في صالح العملية التعليمية ، لاسيما أنها تتسم بالموضوعية ، فلا عبرة بالسن ، و لا بالجنسية ، فلربما ولي التدريس مدرس حديث السن لكنه كفء ، كما لم يشترطوا أن يكون دمشقيّاً ، فالمدرسون المصريون يدرسون بمدارس دمشق[٥]، و كذا هناك من ينتسبون إلى أقاليم أخر ، مثل : أصبهان[٦] ، و قونية [٧]و غيرها، فالكفاءة هي المعيار.

---

(١) السابق : جـ١ ، ص٢٠٦ .

(٢) السابق : جـ١ ، ص ٥٢٠ (المدرسة الركنية).

(٣) السابق : جـ١ ، ص٥٦٥ .

(٤) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، جـ٢ ، ص٢١٨ – سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م .

(٥) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، ص١٦٩ ، وابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٤ ، ص ٢١٤ ، و ابـن ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٤ ، ص٣٦-٣٧ (سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) .

(٦) مثل : شمس الدين الأصبهانى (النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٢٧٢).

(٧) مثل : على بن محمد القونوى(ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).(الصفدى : الوافى بالوفيات، جـ٢٢، ص١٨٨-١٨٩).

بعض السلبيات :

لاريب أن معايير القبول المشار إليها سلفاً ، تضمن حسن اختيار المدرسين ، شريطة الالتزام بها ، لكن يبدو أن التدقيق لم يكن كافياً ؛ فنفاجأ بمستويات هزيلة ، أو بمدرسين ليسوا مؤهلين ، و من أمثلة ذلك :

أ- مدرس يتولى الإقراء، و تدريس النحو في عدة مدارس ، رغم ثقل سمعه[١]، فكيف تم اختياره ؟! و معلوم أن تعليم القرآن ، و اللغة يحتاج إلى سمع جيد من الملقِّن (المدرس) ، و المتلقي (الطالب).

ب- مدرس رثّ الهيئة ، ردىء الخط ، لم يشتغل بشيء من العلوم من قبل ، و مع ذلك يدرِّس في عدة مدارس ، بل يتولى نظارة المدرسة العذراوية[٢]!

ج- و آخر لا صلة له بالعلم ، و العجيب تدريسه بدار الحديث الأشرفية[٣]، و مدرس يدرس الحديث ، و لا علم له بالحديث رواية ، و لا دراية[٤]!

د- مدرس لا يتمتع بمؤهلات التدريس و متطلباته مطلقاً ، و رغم ذلك يدرس في المدرسة الجوهرية الحنفية[٥]، و آخر مصاب بالغباء العقلي ، و بلادة الذهن ، و عدم الفهم بما لا يصلح معه أن يكون طالباً ، فضلاً عن أن يكون مدرساً[٦]!

ه- أحياناً يمتد الأمر و يتطاول ، فيخرج مدرس دمشقي إلى مصر ، و هو يجهل علم الحديث دراية ، فيكتشف الناس ضعفه ،فيُسْند إليه التدريس للطلاب المبتدئين ، فإذا بهم يعيبون عليه تصحيفه في الحديث[٧]! فكيف يدرس مدرس لطلاب صغار لا يثقون بعلمه و يخطئونه ؟!

---

(١) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، مج٢ ، ص٢٢٣، ٢٢٨- (٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م) .

(٢) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٥٥-١٥٦ .

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر ، مج٣ ، ص٤١٠ ، ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) .

(٤) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٢٩ .

(٥) النعيمى : الدارس ، مج١ ، ص٥٠١ .

(٦) ابن حجر : الدرر الكامنة ، مج١ ، ص٢٧٩- ٢٨٠ .

(٧) الصفدى : الوافى بالوفيات ، مج٢٢ ، ص٤٤٨ .

ثانياً ــ طريقة تعيين المدرسين :

في طريقة تعيين المدرس و تسلمه عمله الجديد في مدرسته إظهار لهيمنة الدولة على النظام التعليمي بالمدارس ، و كشف عن المكانة الاجتماعية و العلمية ، التي يحظى بها المدرسون ، و التدقيق الذي يجب القيام به قبل التعيين.

كثيراً ما تطالعنا عبارة : أذن له بالتدريس و الإفتاء[1]، تلك التي تعد الشهادة العلمية ، أو الإجازة التي يمنحها الشيوخ و الأساتذة الكبار من العلماء لتلاميذهم ، الذين شَبُّوا عن الطوق ، و استكملوا أدوات الدرس و العلم ، و حصلوا ما من شأنه يؤهلهم للقيام بمهام هذه الوظيفة المهيبة الراقية (الإفتاء ، و التدريس). هذه هي الخطوة الأولى التي لا مناص منها ، ثم يتلوها مرسوم سلطاني رسمي يصل إلى القائمين على شئون دمشق ، و المدرسة التي سيتولى المدرس التدريس فيها ، فإذا تم هذا يحضر نائب دمشق و يخلع عليه خلعة التدريس ، و معه الأمراء و القضاة ، و الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ، كما حدث مع تاج الدين الزهري (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) مدرس المدرسة الشامية البرانية ، فيتبوأ مقعده في الإيوان،و يجلس القضاة الثلاثة على يمينه ،والنائب عن يساره ،ثم شرع في تدريس قول الله(تعالى) : "إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها"[2]؛ إشارة إلى أنه أهل لذلك (للتدريس) ، و قال في خطبة ألقاها عند ذكر سيدنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم):"والنبوة لم تكن تصلح إلا له ،ولم يكن يصلح إلا لها "[3]. ثم تأتي الخطوة

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٣ ، ص٤١٢ ، وابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر، تحقيق : د.حامد عبد المجيد ، ومراجعة : إبراهيم الإبيارى ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة ، ١٩٦١م ، ج١ ص٨٩،٩١، والسخاوى : الضوء اللامع ، ج٩ ، ص١٥٥ .

(٢) سورة المائدة : ٤/ من الآية٥٨ .

(٣) النعيمى : الدارس ، ج١، ص٢٨٨ .

الأخيرة – فيما أرى – حيث يتم إثبات مرسوم تولية المدرس في محضر خاص بالمدرسة، التي يعمل بها بعد الاحتفال بأول يوم تدريس[1].

ثالثاً ـ رعاية المدرسين مادياً و أدبيّاً :

١ـ الرعاية المادية : تنقسم إلى ما يلي :

نماذج من مرتبات المدرسين المتفاوتة :

- الشيخ المقرئ الذي يقوم بتعليم الأيتام الستة في (المدرسة الدلامية)، يحصل على ستين درهماً شهرياً[2].

- في المدرسة الفارسية : يحصل المدرس على ثمانين درهماً ، و المقرئ على خمسة عشر درهماً شهرياً[3].

- حدد القاضي مرتب المدرس زين الدين خطاب الشافعي بمدرسة أبي عمر ، بمائة و خمسين درهماً في الشهر ، فتوقف مدير المدرسة ، و خفضها إلى تسعين درهماً[4].

ملاحظات :

- يصرف الراتب بإيصال (كما في مرتب ابن القطان بالمدرسة الحلبية عن مدة معينة مقابل أعمال متعددة كالتدريس و غيره) [5].

- لوحظ تحديد القاضي في مدرسة أبي عمر لمرتب المدرس ؛ مما يفيد نوعاً من السلطة ، يمارسها القضاة في بعض المدارس ، لكنها تظل دون سلطة الناظر ، الذي استكثر تقدير القاضي ، فخفض الراتب كثيراً ، لكنه ظل أفضل من بعض المدارس الأخرى. و يبدو أن صاحب المدرسة لم يحدد – في شروط الواقف – مبلغاً معيناً ، أو لعل دخل الوقف كان قليلاً في تلك الفترة.

---

(١) استنتجت ذلك من حالة أخرى – مع اختلاف يسير – حين حَلّ القاضي بدر الدين بن جماعة مدرساً بالمدرسة الناصرية الجوانية عوضاً عن كمال الدين بن الشريشي ، وفق محضر تم إثباته (تسجيله) ، أثبت أن التدريس لقاضي الشافعية بدمشق . (ابن كثير : البداية والنهاية ، حـ١٤ ، ص١٩ ، سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠١م) .

(٢) النعيمي : الدارس ، حـ١ ، ص٩-١٠ .

(٣) المصدر السابق : حـ١ ، ص٤٢٨ .

(٤) السابق : حـ٢ ، ص١٠٨ .

(٥) ابن طوق : التعليق ، حـ١ ، ص٤٩٠ ، سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م .

- هناك مدارس تتعامل بدقة مع مستحقات المدرس المادية ، فمن لم يحضر التدريس في المدرسة البادرائية ، فلا أجرة له[1]، و الشيء نفسه يراعى – أحياناً – في المدرسة العذراوية ، فالمستحقات على قدر عدد الدروس (كما سلكوا مع القاضي كمال الدين البارزي ، فأعطوه مقابل واحد وثلاثين درساً حضرها) [2].

- في مقابل ما مضى هناك عدم انضباط وقلة ورع من بعض المدرسين ، وتساهل من إدارة المدرسة تجاه أولئك الذين يحصلون على رواتبهم كاملة و لو تغيبوا لبعض الوقت، و لعل السبب يكمن في جمع بعض المدرسين بين منصبي التدريس و النظارة،مثل : شمس الدين الونائي ، و إن كان يُذكر له أنه في شئون الإدارة يَعفُّ عن مال المدرسة[3].وفي الوقت نفسه – ومع غياب الضميرو الرقابة – فالبعض لمَ يدرس درساً واحداً، و صرف –رغم ذلك– أموالاً في المدرسة الشامية الجوانية [4] و لعل هذا حدا بالسلطات المملوكية إلى تهديد من يتغيب عن المدرسة بإعطاء راتبه للفقراء[5].

- التأخر في صرف المرتبات – أحياناً – مما يدفع للشكوى ، كما حدث في المدرسة البادرائية [6]، و ربما تمادى هذا الأمر و امتد لسنوات ثلاث كما في المدرسة العصرونية[7]، و لعل مرد ذلك إلى عجز في ميزانية بعض المدارس[8].

- و أحياناً تأتي المرتبات ناقصة ؛ و يؤدي هذا إلى نشوب خلافات ربما لخطأ حسابي[9]، و قد تكون ظاهرة عامة في كافة مرتبات المدرسين باستثناء مدرسي المدرسة المدرسة الشامية[10] دون معرفة سبب ذلك.

---

(١) النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٢١٣ .

(٢) المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٩٨ .

(٣) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٧١-١٧٢ .

(٤) النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٣١١-٣١٣ .

(٥) ابن طوق : لتعليق ، جـ٣ ، ص١٦٦ ، ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م

(٦) المصدر السابق: جـ٢ ، ص٧٣٠ ، سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م .

(٧) المصدر السابق : جـ١ ، ص٤٣١ ، سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م .

(٨) السابق : جـ١ ، ص٢٠٥ ، ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م (كما فى المدرسة الشامية الجوانية) .

(٩) السابق : جـ١ ، ص١٧٤ ، سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م .

(١٠) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، جـ٣ ، ص٣٧-٣٨ .

- هناك بعض المدرسين يعملون في المدارس دون أجرة[1]،ولعل دافعهم إلى ذلك ذلك مزيد من الورع ، أو أن لديهم موارد مالية أخرى ، تغنيهم عن راتب المدرسة ، و يبقى تعليم العلم خالصاً لوجه الله.

يلاحظ – أخيراً- أن مرتبات المدرسين – غالباً – لم تكن كافية لإقامة حياة مستقرة ؛ مما يلجئ البعض – أحياناً – للاستدانة من مال اليتامى بالمدرسة الأشرفية[2].ولعل هذا هو سر الصراع المحتدم ، و المنافسة المحمومة على انتزاع تدريس المدارس بين العلماء ، كما سنرى بعدُ ، كما أن الكثيرين منهم عملوا فى عدة مدارس فى وقت واحد مع التنسيق بين مواقيت الدراسة بها ، وقبلوا العمل فى وظائف أُخَر إلى جانب التدريس ؛ كى يحقق لهم ذلك الاكتفاء المادى المطلوب ، وسنرى مظاهر ذلك فيما بعد . وربما كان دافع البعض النَّهَم فى جمع المال ،ولاننسى أن المدارس كانت توفر لهم سكناً ، وتمدهم بأطعمة دون مقابل ، وهذا يخفف من أعبائهم المالية.

- **توفير مسكن ملائم للمدرسين:**

اهتم أصحاب المدارس بإعداد مسكن ، يقيم به المدرس وأسرته[3] ؛ ضماناً للاستقرار الأسرى ، وحرصاً على ملازمة الطلاب داخل المدرسة ؛ مما يرسخ العلاقة العلمية والإنسانية بين الشيخ وتلامذته.

يبدو أن مسكن المدرس بالمدرسة يكون فى الطابق العلوى منها،كماهو الحال فى المدرسة الخبيصية [4]، والقواسية[5]، وقد يعاد تعمير وتجديد مكان إقامة الشيخ أحياناً،

---

(١) مثل : الشيرازى (ت ٧٣٦هـ/ ١٢٣٥م) . (النعيمى : الدارس جـ١ ، ص٢١٠- ٢١١) ، وشمس الدين الحسينى الحسينى فى المدرسة البادرائية (ت٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م) . (لمصدر السابق : جـ١ ، ص٢١٣-٢١٤) ، وشهاب الدين أحمد بن محمد الشافعى شيخ الأشرفية ، والظاهرية (ابن كثير : البداية والنهاية : ١٤/ ١٧١).

(٢) المقريزى : المقفى ، جـ٦ ، ص٤٢- ٤٣ .

(٣) ورد أن أم أحد المدرسين كانت تقيم فى دهليز المدرسة الدولعية . (ابن طوق :التعليق ،جـ٢،ص٥٨٣ ،سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٥م).

(٤) أقام بها بدرالدين بن القاضى (ت ٨١٤هـ/ ١٤١١م). (النعيمى:الدارس، جـ ١ ، ص ٢٣٥) .

(٥) أصيب الشيخ شمس الدين بن الطباخ بالطاعون ، ومات بأعلى المدرسة القواسية سنة ٨٢٦هـ / ١٤٢٢م. (النعيمى:الدارس، جـ ١ ،ص ٤٣٧).

أحياناً، مثل : السكن الجديد الذى أقام به الفقيه ابن قاضى عجلون الشافعى (ت٩٢٨هـ/ ١٥٢١م) بالمدرسة القيمرية[١]

إذا تعددت المدارس التى يدرس فيها المدرس، لا يتصور أنه يقيم فيها جميعاً ، فلعله يختار إحداها للإقامة بها ، أو يتنقل بينها[٢]، وتشير النصوص إلى ملازمة بعضهم للإقامة بالمدرسة حتى الوفاة ، مادام يعمل بها ، كما هو الحال مع أبى عبد الله المالينى فى المدرسة الصارمية (ت٧١٦هـ/ ١٣١٦م)[٣]، وفخر الدين ابن سلامة (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م) فى المدرسة الصمصامية[٤]، وتاج الدين المصرى (ت٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م) فى المدرسة العادلية الصغرى[٥]، والتاج السبكى الذى ظل يسكن دار الحديث الأشرفية الجوانية حتى مات (سنة٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) [٦].

ليس من الضرورى إقامة جميع المدرسين فى مدارسهم ، فأحياناً يفضل بعضهم الإقامة خارجها ، مثل: قاضى القضاة عز الدين المقدسى (ت٧٣١هـ/ ١٣٣٠م)، الذى كان يدرس فى المدرسة الجوزية ، وفى دار الحديث الأشرفية ، ويأوى إلى بيته[٧]، وثمة مدرسون آخرون يدرسون ، ثم يعودون إلى مساكنهم بالصالحية[٨]، وكان ابن

(١) ابن طوق : التعليق ، جـ ١ ، ص ١٠٣- ١٠٤

(٢) كان الفقيه ابن قاضي عجلون يتنقل بين الشامية البرانية (المصدر السابق: جـ ١، ص ٢٥٤) ، والقيمرية (السابق:جـ١، ص ٢٣٦) ، والبادرائية (السابق: جـ١ ،ص ٢٨٤)

(٣) النعيمى :الدارس :ـ جـ١، ص٣٣٠.

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ، ص ١٤.

(٥) السابق : جـ ١ ، ص ٣٧٣.

(٦) ابن حجر :إنباء الغمر: جـ١ ، ص ٥٣.

(٧) ابن كثير :البداية والنهاية : جـ ١٤ ، ص ١٦١.

(٨) ابن طوق : التعليق ، جـ٢ ، ص ٦٣١ ، سنة ٨٩١ه/ ١٤٨٦م.

رجب الحنبلى (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) يدرس بالمدرسة الحنبلية ، بينما يسكن فى مدرسة أخرى هى دار الحديث السكرية بالقَصّاعين[١].

- **المكانة الاجتماعية اللائقة بالمدرسين:**

حظى المدرسون – غالباً – بمكانة اجتماعية وأدبية معتبرة فى المجتمع الدمشقى ، سواء كان ذلك بين العلماء ، أم الطلاب ، أم المجتمع ممثلاً فى عامة الناس وحكامهم .

من دلائل مكانتهم عند العلماء :

– ما قيل عن قاضى القضاة أحمد بن محمد بن سالم الدمشقى الشافعى المعروف بـ(ابن صَصْرَى ت٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م) ، وكان يدرس بالعادلية الصغرى ، والأمينية ، ثم بالمدرسة الغزالية ثم أضيفت إليه مشيخة الشيوخ[٢]. قيل : كان ينطوى على دين وتعبُّد ، أذن لجماعة فى الفتوى ، تحرى الحق فى قضاياه ، فلم تُدَلَّس عليه قضية ، ولم

---

(١) النعيمى : الدارس، جـ٢ ، ص ٧٧. ولم يستقص النعيمى فى ذكر مدرسي دار الحديث السكرية ، واكتفى بالحديث عن ابن تيمية، والذهبي والصدر المالكي (السابق : جـ ١ ، ص ٧٤–٨٠). فربما كان ابن رجب يدرس بها، فطابت اقامته بها عن غيرها.

(٢) النعيمى :المصدر السابق ، جـ ١، ص ١٣٢ . ورد فى : القلقشندي : صبح الأعشى ، جـ٦ ، ص ٥٧ ، لقب من من ألقاب الصالحين ، وهو شيخ المشايخ. وعرّف أحدهم (شيخ الشيوخ) بأنه لقب يطلق على كل من يتولى الإشراف على رجال الطرق الصوفية. (محمد قنديل البقلى :التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،١٩٨٣م ، ص ٢٠٩. وتجدر الإشارة إلى أن ابن إياس ذكر أن أول من لقب بـ(شيخ الشيوخ) هو الشيخ ضياء الدين عبيد الله القنَويّ ، لقبه به السلطان المملوكى الأشرف شعبان (٧٦٤ – ذو القعدة ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ – ١٣٧٦م) قبيل خنق السلطان بوقت قصير. (بدائع الزهور فى وقائع الدهور،تحقيق: محمد مصطفى، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ١٧٤). والحق أن كلام ابن إياس يحتاج إلى إعادة نظر ؛ لأن لقب (شيخ الشيوخ) ارتبط بظهور الخانكاه(دار الصوفية) ، وهذه استحدثت فى ديار الإسلام فى حدود سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩ م. وفى مصر ارتبط ظهور اللقب ببناء (الخانكاه الصلاحية دار سعيد السعداء) أحد خُدّام القصر عتيق الخليفة المستنصر الفاطمى(٤٢٧ – ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥–١٠٩٤ م) ، وسعيد السعداء قتل سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩ م. ولُقّب كل شيخ خانكاه بـ(شيخ الشيوخ).(المقريزى: الخطط، جـ ٢، ص ٤١٤–٤١٥).

يُشْهَد أمامه بزور ، وما ارتشى من أحد شيئاً ، وكان موته (رحمه الله) مفتاحاً لموت رؤساء دمشق وعلمائها[١] .

– من دلائل مكانة علىّ بن عبد الكافى السبكى (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) ثناء الأئمة عليه[٢]، واهتمام القضاة وأكابر المدرسين والعلماء بحضور درس محيى الدين بن جهبل (ت٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) فى المدرسة الأتابكية الشافعية[٣]، برهان ساطع على تقديرهم إياه ، وكذلك كان الفقهاء من كل مذهب يحضرون مجلس علم شيخ الحنابلة بالمدرسة الحنبلية برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح (ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)[٤]

– من أمارات السمعة العلمية الطيبة: استدعاء شرف الدين بن قاضى الجبل (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) – فى آخر عمره إلى مصر–للتدريس بمدرسة السلطان حسن،وإقبال أهل مصر عليه،وأخذهم عنه[٥] ، وكذلك استدعى السلطان الأشرفُ أحمدَ بن علىّ الدمشقى (ت٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م) من دمشق ، وولاه قضاء القضاة بمصر، وفى القاهرة انتصب للإقراء بالمدرسة المنصورية، فقرأ عليه جماعة فى الفقه ، وفى أصول الفقه [٦]. أما محمد بن رافع السلاّمى (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م) ، فإنه لما مات المزّىّ (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، ولاه السبكى مشيخة دار الحديث النورية ، وقدمه على ابن كَثير وغيره ، ولما خلا مكان الذهبى فى تدريس الحديث بالمدرسة الفاضلية ، لم يجد سواه ليخلف الذهبى دون سائر المحدّثين[٧]. وأخيراً ، لم تكن العلاقة بين العلماء جيدة

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات : جـ ١ ، ص ١٢٥– ١٢٦.

(٢) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ،جـ ١٠ ، ص ١٩٥.

(٣) النعيمى : الدارس ، جـ ١ ، ص ١٣٣ .

(٤) المصدر السابق : جـ٢ ، ص ٨٥.

(٥) السابق : جـ٢ ، ص ٤٤– ٤٥.

(٦) التميمي: الطبقات السنية فى تراجم الحنفية ، تحقيق: د.عبدالفتاح محمد الحلو ، دار الرفاعى للطباعه والنشر والتوزيع بالرياض ، ١٩٨٣ م ، جـ ١، ص ٤١٠–٤١١.

(٧) ابن حجر :إنباء الغمر، جـ١ ، ص ٤٩.

دائماً على النحو الذى رأيناه سلفاً ؛ لأن المعاصرة حجاب ، وقد تسوء العلاقة بينهم كما كانت بين ابن تيمية (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) ، والزملكانى (ت٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م) [١].

من علامات منزلة المدرسين عند الطلاب :

- كثرة حضور طلاب العلم مجالسهم على اختلاف مذاهبهم الفقهية[٢].

- ارتحال طلاب العلم إليهم ، و حرصهم على التلقي عنهم ، و مجيئهم من الأماكن النائية[٣].

- إقبال الطلاب عليهم ، و عكوفهم و ملازمتهم إياهم ، و في المقابل يبادل المدرسون تلاميذهم اهتماماً باهتمام ، فيتفرغ بعضهم للتدريس ، و يُعرض عن بني الدنيا جملة و عن وظائف الفقهاء بالكلية[٤]

مكانتهم فى المجتمع عامة :

• إسراع الناس إلى بعضهم والترحيب بأحدهم لما نزل الشامية البرانية[٥]، كما أن أن الناس تلجأ للعلماء المدرسين لفض الخصومات بينهم ، و إصلاح ذات البين[٦]، و إذا تعرضوا لقهر من الجند كانوا يلجئون إلى أحد من العلماء المدرسين ؛ ليغيثهم مما حَلَّ بهم من ظلم [٧]

---

(١) النعيمى : الدارس ، جـ ١ ، ص ٣٢ – ٣٣.

(٢) مثل : ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ/ ١٤٤٨ م) . راجع السخاوي :الذيل على رفع الإصر ، أو بغية العلماء والرواة ، تحقيق : د.جودة هلال ، و محمد محمود صبح، ومراجعة: على البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ، د.ت ، ص ٨٦.

(٣) مثل : أبى بكر بن أحمد بن محمد الأسدي الدمشقي (ت ٨٥١ هـ/ ١٤٤٧ م) راجع : السخاوى : الضوء اللامع اللامع ، جـ ١١، ص ٢١-٢٢ (درّس فى الظاهرية ، و العذراوية، والركنية وغيرها ، والأعيان فى وقتها بدمشق من تلامذته).

(٤) مثل : أبى بكر بن إبراهيم بن يوسف التقى الدمشقى الحنبلي (ت ٨٦١ هـ/ ١٤٥٦م). المصدر السابق : جـ ١١ ١١ ، ص ١٤-١٥.

(٥) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص ١٣٠.

(٦) ابن طوق : التعليق ، جـ ١ ، ص ٢٨٤ ، سنة ٨٨٨ هـ/ ١٤٨٣ م .

(٧) المصدر السابق : جـ ١ ، ص ١٣٦-١٣٧.

• بلغت ثقة الحكام و النظار و المجتمع عامة و طلاب العلم درجة كبيرة بالمدرسين ، فارتضوا سيرتهم الطيبة ، و مكانتهم العلمية السامية ، بحيث ظل بعضهم يعمل – دون عزل– في مجال التدريس بمدارس دمشق المختلفة سنوات طويلة متتابعة حتى الوفاة[1].

• بعض العلماء من المدرسين كانوا على علاقة طيبة بسلاطين المماليك ، مثل : علي بن إسماعيل بن يوسف القُونَوي الشافعي ، الذي قدم إلى دمشق سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٣ م ، فدرّس بالإقبالية ، ثم قدم إلى القاهرة ، و ذاع صلاحه و علمه ، و كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت٧٤١هـ/ ١٣٤١م) يعظمه ، و يثني عليه ، ثم ولاه قضاء دمشق ، فتوجّه إليها سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦م ، فباشر المنصب كأحسن ما يكون ، ثم طلب إعفاءه ، فلم يجبه السلطان. توفى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م بدمشق ، و أسف الناس على فقده[2] . وكذلك كان أبوبكر بن أحمد بن سليمان الدمشقي الشافعي نائب الحكم بدمشق ، و تصدى للتدريس ، فانتفع به الطلاب و أفاضل الناس بالمدرسة العادلية الصغرى ، و لما مات سنة ٨٥٨ هـ/ ١٤٥٤م ، حمل حاجب الحجاب نعشه من منزله بالعادلية الصغرى إلى وسط الجامع الأموي بدمشق،حيث صلى عليه ، و دفن بمقبرة الباب الشرقي ، و كانت جنازته حافلة بالأعيان[3].

---

(١) درس بعضهم عشر سنوات (علاء الدين الكندي ، ت ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م) بدار الحديث النفيسية. (النعيمى : الدارس ، جـ ١ ، ص ١١٤ – ١١٥)،ودرّس وأفتى بعضهم نيفاً وخمسين سنة(تقى الدين سليمان بن حمزة ، ت ٧١٥هـ/ ١٣١٥ م). المصدر السابق : جـ ١ ، ص ٥٢-٥٣ . والبعض درّس بدمشق نيفاً وسبعين سنة (المقريزي: المقفى ، جـ ١ ، ص ٣٥٦-٣٥٧).

(٢) الشوكانى : البدر الطالع ، جـ ١ ، ص ٣٠١-٣٠٢.

(٣) كثيرًا ما نقرأ فى المصادر ما يدل على تجزئة التدريس في المدارس ، مثل : تنازل شهاب الدين بن حجى (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣ م) عن نصف تدريس المدرسة الأتابكية للقاضي شمس الدين الإخنائى (النعيمى : الدارس ، جـ ١ ، ص١٤٣). والبعض يدرس بمقدار النصف فى مدرسة أصالة ، ويدرس النصف الآخر نيابة عن غيره (المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٨١) ، والبعض يتنازل عن نصف تدريس الركنية مقابل الحصول على تسعة آلاف درهم (ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٣ ، ص٦٠٧). و لعلهم فعلوا ذلك ؛ تخففاً من الأعباء ، و لعل التنازل يكون في عدد الدروس ، أو الأيام ، و من ثم اقتسام الدخل. و يرى أحد الباحثين أن هذه من سمات ضعف الإدارة في العصر المملوكي ؛ لأنها تخضع للمجاملات ، و تحركها الأهواء. (محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيقه للقلائد الجوهرية لابن طولون الدمشقي) ص٢٥-٢٦ (هامش ١). و أعتقد أن هذه التجزئة طالت المناصب الإدارية أيضاً (في دار القرآن الصابونية يكون نصف النظر لحاجب دمشق كائناً من كان ، و النصف الآخر للإمام). (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص١٤). و هذا- في نظري – مخل بجودة العملية التعليمية ، إلا إذا تكامل و تناسق المقتسمان.

رابعاً- تعدد المهام التدريسية و الدَّعوْية للمدرسين :

لعل قلة عدد المدرسين ، و تواضع مرتباتهم أحياناً ، و عدم انتظام صرف مستحقاتهم ، و التقليل منها أحياناً أُخَر ، دفعهم للعمل في أكثر من مدرسة على التوازي. و يلاحظ أن المشتغلين بالعلم في المدارس ، تتعدد و تتنوع درجاتهم العلمية عند التدريس في هذه المدارس ، فيعملون معيدين في بعضها ، و مدرسين مستقلين أو نواباً في التدريس ، أو مشاركين لغيرهم في بعضها الآخر[1] و بالإضافة إلى هذه الأعباء التدريسية، فهم يدركون جيداً واجبهم الاجتماعي من الإصلاح والوعظ و الإرشاد، و الخطابة في المساجد ، و هذا كله يحتاج إلى جهد كبير يضاف إلى الجهود الأخرى ، و في النهاية يتحملون مسئولية تخريج أجيال جديدة من العلماء ، و يطالبون بترسيخ القيم النبيلة و الأخلاق الحميدة في المجتمع مع التصدي للرذائل و القبائح و المنكرات[2].

أنماط تعدد مهام التدريس و الدعوة :

- قيام البعض بالتدريس في مدارس عديدة ، يحاول التوفيق بين مواعيد الدراسة فيها ، و توزيعها على مدار الأسبوع (كما هو الحال مع نجم الدين بن حجي ت٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) [3].

- قراءة صحيح البخاري بعد الظهر في الجامع الأموي في رمضان ، و العمل معيداً بالمدرسة الناصرية ، و المدرسة العادلية ، و تولى مشيخة النحو في المدرسة الناصرية[4]

- الجمع بين التدريس في دار الحديث الأشرفية ، و الخطابة في الجامع الأموي[5].

- التدريس في المدرسة العادلية ، و الأتابكية ، و تولي مشيخة الشيوخ الصوفية[6]

---

(١) مثل : الإجراءات المنكرة التي اتخذها الأمير سودون نائب دمشق ، كالسماح ببيع الخمور ، و ممارسة البغاء ، و ارتكاب الكبائر. (المقريزي : السلوك ، جـ٤ ، ق٣ ، ص١٠٦٦-١٠٦٧ ، سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م).

(٢) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٢٥٨.

(٣) المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٧٢ (بدر الدين بن مكتوم ت ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م).

(٤) السابق : جـ١ ، ص٢٧.

(٥) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص٨٤.

(٦) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص٨٤.

- التدريس في المدرسة الشامية البرانية ، إضافة إلى نصف تدريس الجوزية[1].
- النيابة عن الوالد في تدريس : العادلية الصغرى ، والرواحية ، والاستقلال بتدريس المدرسة الدولعية[2]
- الجمع بين التدريس ، و الوعظ[3]
- الجمع بين مشيخة الإقراء في مدرستين (تخصص واحد) [4].

ملاحظتان :

أ- عند تعدد التدريس في المدارس ، يصدر مرسوم أو توقيع رسمي لإثبات هذا التعدد[5].

ب- المرونة في التعامل بين مدرسي المذاهب الفقهية كانت موجودة،وثقافة الفقه المقارن كانت متحققة في بعض المدرسين؛و لذلك لا غرو أن نجد مفتياً حنفيّاً يدرس في مدرستين شافعيتين (الركنية، والمقدمية) ، و هو أول من جمع في التدريس بين الفقه و الأصول[6].

خامساً ـ مهام وظيفية أخرى يضطلع بها المدرسون:

هذه الجزئية تمثل مزيداً من الأعباء التي يتحملها المدرسون ، حيث تُسند إليهم – أحياناً – بعض الوظائفف الأخرى ، التي يغلب عليها الطابع الإداري ، و قد رأينا – من قبل – أنه بقدر ما يتم الالتزام بمعايير انتقاء المدرسين يكون نجاح العملية التعليمية[7]، و هو ما يجب أن تدقق فيه الدولة عند اختيار ذوي المناصب الإدارية

---

(١) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٥٣- ٥٤.

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ١٨ ، ص٢٦١- ٢٦٢ (تاج الدين الشافعي المتوفي ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

(٣) المقريزي : درر العقود الفريدة ، جـ٢ ، ص٥٤٢.

(٤) ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٣ ، ص٤٨ ، سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م.

(٥) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص٤١١ – سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.

(٦) السابق : جـ٣ ، ص١١٨.

(٧) و من ثم ليس من المعايير المنضبطة في اختيار المدرسين ماحدث في المدرسة الجوزية الحنبلية بأن كل من تولى قضاء الحنابلة يتولى التدريس بالجوزية ، و إن لم يكن أهلاً للتدريس بها ، و يكون بها معيد معه. (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٥٤).

أيضاً، فمثلاً : عَلي بن محمد القونوي (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) أسند إليه – إلى جانب التدريس في القليجية – مهمة العمل مترجماً من العجمية إلى العربية ، حيث يترجم ما يأتي إلى الديوان من الكتب و الرسائل[١]. و أعتقد أن هذا اختيار موفق لرجل من قونية (من بلاد الروم) يجيد لغته الأعجمية ، و يجيد العربية أيضاً.

ثمة نماذج أخرى متنوعة على النحو الآتي:

– كمال الدين بن الشريشي (ت٧١٨هـ/ ١٣١٨م) : يدرس الفقه الشافعي ، و يعمل وكيلاً لبيت المال بدمشق[٢].

– جمال الدين بن جملة (ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م): يتولى الإفتاء ، و الحكم (القضاء) ، و يعمل معيداً في المدرسة القيمرية[٣].

– شهاب الدين الحسباني (ت٨١٥هـ/ ١٤١٢م): يلي تدريس المدرسة الغزالية ، و نظرها ، و نصف الخطابة ، و يلي مشيخة دار الحديث[٤].

– بهاء الدين الدمشقي الشافعي (ت٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م) : درس القراءات السبع، وعرف الفقه ، والعربية ،

و قدم القاهرة،وحضر بين يدي الناصر محمد بن قلاوون ، و ولاه تدريس المدرسة الأمينية ، و ولي بعد ذلك حسبة دمشق[٥].

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٢٢ ، ص١٨٨– ١٨٩.

(٢) الكتبي : فوات الوفيات ، جـ١ ، ص١٢٠– ١٢١. وكالة بيت المال : وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، من يتولاها يتحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال و مشترياته من أراض و دور وغيرها ، و لا تسند هذه الوظيفة إلا لذوي الهيبة من الشيوخ العدول ، و يفوضه الخليفة ببيع ما يرى بيعه من ممتلكاته ، و يجوز التصرف شرعاً فيه ، و عتق المماليك ، و تزويج الإماء ، و غير ذلك. (محمد قنديل البقلي : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص٣٦١).

(٣) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص٩٨.

(٤) المصدر السابق : ص١٣١– ١٣٢.

(٥) المقريزي : المقفى ، جـ٦ ، ص٢٧٤.

ملاحظة:

أرجح أن التوفيق حالف السلطة في اختيار المدرسين السابقين ليتولوا ما وُلُّوا من وظائف أُخَر ، فهي متسقة مع ثقافتهم و علومهم ؛ فوكالة بيت المال تحتاج إلى عالم أمين فقيه ، و الإفتاء و القضاء ينهضان على أساس من أحكام الشرع ، و رؤية السلطان لبهاء الدين الدمشقي لم تكن من فراغ ؛ لأنه لابد سمع عن علمه ، و قابله فعرف أهم سمات شخصيته ، فولاه التدريس ، ثم الحسبة لميزات و خصال من الفقه و العلم و الحزم رآها فيه. غير أني لا أستطيع الحكم بتوفيق هؤلاء فيما ولوا بعد أن دخلوا ميدان التطبيق العملي ؛ لعدم توفر المادة العلمية الدالة على ذلك.

سادساً – تغييرات في وظائف يشغلها المدرسون و بعض الإداريين :

تطرأ متغيرات عديدة تؤدي إلى تعديلات في الوظائف التي يشغلها المدرسون ، خاصة مجال التدريس، و كذلك على مستوى الإداريين المشرفين على المدارس. قد تخلو بعض المدارس من مدرسيها ؛ لسبب قهري قدري (مرض ، أو شيخوخة ، أو وفاة) ، و قد يتنازل بعض المدرسين تنازلاً تامَاً لمن تربطهم بهم صلة قرابة أو نحوها ؛ بهدف التخفف من الأعباء ، و قد يكون التنازل مؤقتاً لمن ينوب عنهم في التدريس. و قد يُعزل المدرسون قسراً من قبل السلطة الحاكمة لسبب معلوم ، أو مجهول. و قد يرحل البعض إلى إقليم آخر تاركاً التدريس شاغراً أمام المتطلعين. و قد يتم الاتفاق بين مدرسيْن لتبادل المواقع بينهما داخل دمشق أو خارجها. و لاريب أن ذلك كله يؤثر في استقرار العملية التعليمية و جودتها ، فقد يتم التنازل لغير الأكفاء ، و قد يرتبط التنازل نفسه ببعض مظاهر الانحراف (كدفع الرشاوي مثلاً).

خلو المنصب اضطراراً: من أسباب ذلك :

- المرض: (ثقل اللسان[1]- ضعف البصر[2] – مرض الموت[3]).

ملاحظة: قد يكون المرض عارضاً مؤقتاً ،فيعتذر المدرس عن إلقاء الدرس ، فينوب عنه غيره (مثل: مرض القاضي محب الدين ، و حضور ابن قاضي عجلون مكانه ، و ألقى الدرس مختصراً في الشامية البرانية[4]).

- كبر السن : ترك القاضي جلال الدين الشافعي التدريس في (الشامية الجوانية) ، و طلب إعفاءه من العمل ؛ لتقدم سنه[5].

- الوفاة :

- ولي جمال الدين بن كمال الدين بن الشريشي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م) مشيخة دار الحديث الناصرية بعد وفاة والده ، و كانت لديه خبرة تدريسية سابقة؛ لأنه كان يدرس في حياة أبيه بعدة مدارس[6].

- بعد موت شهاب الدين بن المجد ، درّس ولداه مكانه في مدارسه التي كان يعمل بها[7].

---

(١) كما حدث مع جمال الدين بن قاضي شهبة،الذي دَرَّس مكان أبيه المريض في المدرسة العذراوية. (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٤٠٤).

(٢) راجع : (ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٣ ،ص٢٠).

(٣) مثل: تنازل شهاب الدين أحمد بن حجي لابن نشوان. (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٣٧٩).

(٤) ابن طوق : التعليق ، جـ٢ ، ص٦١٣ (سنة ٨٩١ه/ ١٤٨٦م).

(٥) ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور و بنيه ، تحقيق : د. محمد محمد أمين ، و مراجعة : د. سعيد عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢م ، جـ٢ ، ص١٧٠- ١٧١ ، (سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م).

(٦) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص١١٧.

(٧) المصدر السابق : جـ١ ، ص١٣٣.

- **العزل من قبل السلطة:**

• لسبب معروف : و هذا نادر الحدوث جدّاً ، و يمكن استنتاجه و ترجيحه ، كما عُزل ابنا جلال الدين بن التقي (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) عن التدريس ، و كان أحدهما صغيراً (لعل السبب عدم الكفاءة) [١].

- عُزل زين الدين القرشي عن الناصرية ؛ لأن شرط الواقف أن يكون مدرسها قاضي القضاة[٢].

• لسبب مجهول : و هذا في معظم الوقائع ، و قد يتبع العزلَ عقوبة ، أو تسبقه عقوبة ، مثل:

- عزل السلطان لاجين بكتاب رسمي منه لإمام الدين مدرس القيمرية ، وولى مكانه بدر الدين بن جماعة[٣].

- عزل الأب و ابنه المفوض بالتدريس عن أبيه ، واعتقالهما، ومعاقبة برقوق (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) لهما[٤].

- و قد يعزل المدرس ، ويظل خاملاً عاطلاً لا يُوَلَّى حتى الموت (ابن الرهاوي ت٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م) [٥]، و قد يعود المدرس المعزول ثانية للتدريس بعد انتهاء المحنة، المحنة، مثل : تقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، حيث أعيد لتدريس المذهب الشافعي من جديد[٦].

---

(١) السابق : جـ٢ ، ص٧٨ . و قد يذكر سبب عدم الأهلية صراحة (درّس الباعوني في وظائف ابن سريَ الدين لعدم الأهلية). (ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص١٠٥ ، سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م). و قد يُعزل المدرس تعسفياً ، ثم يعاد مرة أخرى (القاضي فخر الدين المصري مدرس العادلية الصغرى،والدولعية عُزل سنة ٧٤١ه/ ١٣٤٠م ، و أُعيد سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م). (ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٢ ، ص١٢٠-١٢١).

(٢) المصدر السابق : ج٣ ، ص١٦٠-٧٨٧ه/ ١٣٨٥م.

(٣) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص٨٠-٨١.

(٤) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٤٠-٤١.

(٥) المصدر السابق : جـ١ ، ص ٢٨٦.

(٦) السابق: جـ١ ، ص١٣٥.

- مصادرة القاضي ابن القلانسي في المدرسة العصرونية ، ثم عزله[1].

- خلو المنصب طواعية: حيث يتنازل صاحب المنصب عنه - أو عن جزء منه - بإرادته لغيره . ويمكن دراسة هذه الجزئية على مستويين:

١ـ مستوى التدريس:

- تنازل الأب عز الدين المقدسي (ت ٧٣١ هـ/ ١٣٣٠م) في حياته عن التدريس في المدرسة الجوزية لابنه[2]، وكذلك تنازل والد لابنه عن تدريس الأتابكية سنة (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م) ، وصدر بذلك التنازل مرسوم سلطاني[3]. ومعنى هذا أن التنازل عن التدريس يكون معلوما للدولة، ويصدر به توقيع رسمي وموافقة مكتوبة، شأنه شأن الوظائف الأخرى، ومنها القضاء مثلاً[4]، ولعل الدافع غير الصريح لهذا التنازل يكمن في رغبة الوالد في إكمال المشوار الوظيفي الذي بدأه ابنه؛ ليضمن له مستقبلاً ماديّاً وأدبيّاً معقولاً.

وهناك أسباب أخرى معلنة ومتنوعة تنازل أصحابها عن التدريس لأجلها، كأن يعتزل المدرس طواعية - بعد مدة قصيرة - لعدم تحقق شرط الواقف فيمن يلي التدريس في مدرسته، ولزهد المتنازل في الراتب[5]، أو الرغبة في الانقطاع لطلب العلم[6]،أو تفرغاً للعبادة والاطلاع على علم الفقه[7]، أو لعدم طيب مقامه في دمشق ومغادرته إياها إلى بلده مصر[8].

---

(١) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص٣٠٣ – سنة ٧٦٢ه/ ١٣٦٠م.

(٢) النعيمى: الدارس،جـ٢،ص٣٩.

(٣) ابن كثير: البداية و النهاية ،جـ١٤ ،ص٣٠٣ .

(٤) عزل نائبُ الشام القاضيَ ابن أبى البقاء ، وولى القاضى شمس الدين الإخنائى بتوقيع . (الصيرفى: نزهة النفوس النفوس و الأبدان فى تواريخ الزمان ، تحقيق: د.حسن حبشى ، مركز تحقيق التراث ، مطبعة دار الكتب بالقاهرة،١٩٧١م ، جـ٢ ، ص١١٤-١١٥ ، سنة٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م).

(٥) الصفدى: الوافى بالوفيات ،جـ٢١ ،ص٨٣- ٨٤ .

(٦) السبكى: طبقات الشافعية الكبرى ،جـ٩ ،ص ١٤٧ ،(سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م).

(٧) ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٣ ،ص٦٧٤ (سنة٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م).

(٨) تم ذلك بعد تدريس درس واحد بالمدرسة الظاهرية بدمشق. (المصدر السابق: جـ٤ ،ص١١٥ ،سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م).

ملاحظات:

أ- لايقتصر التنازل عن التدريس على الأب وحده، فقد يتنازل المدرس لزوج ابنته[١]، أو يتنازل الجد للحفيد[٢].

ب- أحياناً يشغل المدرس وظيفة أخرى كالخطابة إلى جانب التدريس، كما هو الحال مع (تاج الدين الفزاري ت ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م) ، فأراد التخفف من الخطابة، والإبقاء على التدريس بالمدرسة البادرائية، فإذا بمرسوم سلطاني يصدر، يلزمه بالخطابة أيضاً، نظراً لكفاءته[٣].

ج- قد يتم التنازل عن جزء من التدريس. مثال ذلك: تنازل التقى بن قاضي عجلون عن ثلث تدريس الشامية البرانية لعمر بن على الدمشقي[٤].

د- قد يكون التنازل عن جزء من التدريس مقابل دفع المتنازل له مبلغاً من المال، مثل: التنازل عن نصف تدريس الركنية مقابل تسعه آلاف درهم[٥].

٢- مستوى الإدارة المدرسية (أو التدريس مع الإدارة):

أ- تنازل محيي الدين الإخنائي عن إدارة المدرسة البادرائية، وراتبها بعد استئذان خاله دون إشهاد على ذلك[٦].

ب – تنازل القاضي بدر الدين بن أبي البقاء عن تدريس الرواحية ونظرها لشرف الدين موسى بن شهاب الرَّمْثاوي مقابل دفع الأخير خمسة عشر ألف درهم، رغم أن المتنازَل له من صغار الطلبة في علم الفرائض، وكان يطلب ترك التدريس في المدرسة الأسدية، ونزل منها إلى المدرسة الرواحية، ثم بطل التنازل؛ ربما لعدم توفر شروط

---

(١) النعيمى: الدارس ،جـ١ ،ص٢٢٩.

(٢) كما حدث فى المدرسة الطرخانية الحنفية. (ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٢،ص١٨٠- ١٨١ ،سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م).

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ،جـ١٤ ،ص٣٣ ،سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع ،جـ٦ ،ص١٠٧.

(٥) ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٣ ،ص٦٠٧ ،سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م.

(٦) ابن طوق: التعليق ،جـ٢ ،ص٧٣١ – سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م.

الواقف فيه، وولى غيره تدريسها (الشيخ شرف الدين الغَزّي) بعد التنازل عن خمسمائة درهم من المبلغ المدفوع[١].

- المشاركة والتبادل والتناوب في التدريس: هذه صور كانت موجودة في بعض المدارس، وعليها شواهد تاريخية:

أ - اشتراك الإخوة في التدريس معاً (كما في المدرسة الفلكية، والمدرسة الدولعية) [٢].

ب - تناوب التدريس بين الأخوين يوماً بعد يوم[٣].

جـ - تبادل موقعي التدريس بين مدرس في دمشق، وآخر في القدس[٤].

تعليق:

لاحظت السلطات المملوكية شيوع التنازل عن الوظائف بعامة، وفُشوَّه في مجال التدريس خاصة، ورغم أن الاستقلال بالتدريس، أو التنازل عنه، أو المشاركة والتبادل فيه يتم وفق مراسيم سلطانية[٥]، إلا أنه اتضح وجود عيوب ومثالب عديدة، ترتبت على التوسع في هذا الشأن؛ لذلك صدر مرسوم سلطاني بعدم التنازل عن الوظيفة لغير المؤهلين[٦]؛ نظراً لأنه يفتح أبواباً للفساد كشيوع الرشاوى مقابل الحصول على المنصب[٧]لدرجة أن أصبح تولي الوظائف دون دفع رشوة يُنَصّ عليه[٨]وكأنه

---

(١) ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٣ ،ص٥١٨-٥١٩ ،سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع ،جـ٨ ،ص٩٧.

(٣) ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٣،ص٤٦١ – ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م.

(٤) ولى خليل بن كَيْكَلْدى بن عبدالله الدمشقى الشافعى تدريس عدة مدارس بدمشق لعل آخرها مشيخة الحديث بالناصرية الجوانية ، ثم انتقل إلى القدس مدرساً بالمدرسة الصلاحية ، وانتقل مدرسها إلى دمشق على وظائفه. (المصدر السابق: جـ٢ ،ص١٦٧ – ١٦٨ ، توفي سنة ٧٦١ه / ١٣٥٩م).

(٥) السابق: جـ٢ ،ص١٦١ ، سنة ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م.

(٦) المقريزى: السلوك ،جـ٤، ق٢ ،ص٦١٩ – سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م.

(٧) المصدر السابق ،جـ٤ ،ق٢ ،ص٦٣٨ – سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م.

(٨) السابق: جـ٤ ،ق٢ ،ص٩٨١ – ٩٨٢ ،سنة ٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م.

الاستثناء وليس الأصل، دونما اعتبار للكفاءة، وهو داء وبيل يصيب الإدارة عموماً، والتدريس على وجه الخصوص[1].

لاشك أن ما تقدم من تنازلات في مجال التدريس ، ارتبط به وترتب عليه سلبيات عديدة، لذلك حُقَّ للسلطة الحاكمة إصدار ما أصدرته سلفاً. ومن هذه السلبيات:

أ- التنازل المؤقت الذي ينيب فيه المدرس نائباً عنه في التدريس لطارئ وقع له مثلاً، يؤدي إلى قصور وإهمال في أداء النائب للدرس، فمثلاً: نائبا بهاء الدين بن حجر شيخ الشيوخ كانا لا يعملان حتى نهاية اليوم، ويكتفيان بالتدريس حتى الظهر، وتعطل الدراسة بعد ذلك[2]، وأحياناً لا يذهب النائب إلى المدرسة إلا قليلاً (مثل: السراج الحمصي) [3].

ب- قد يطمع النائب في الاستقلال بالتدريس عن المدرس الأصلي الذي استنابه، وينتزع منه حقه بصورة أو أخرى، مثل : انتزاع تقي الدين السبكي التدريس بالمدرسة العذراوية من خاله (تاج الدين السبكي ت ٧٨٧ هـ/ ١٣٨٥ م)، إذ كان يسعى لتحقيق مأربه من القاهرة عن طريق أمراء ، وذوي نفوذ؛ لتمكينه مما يريد[4].

وقد ينتزع التدريس من صاحبه، فيشكو إلى السلطة الحاكمة التي تنصفه، وتُعيد له ما اغتُصب منه بمرسوم سلطاني ، يهنئه الناس عليه[5].

---

(١) المقريزي: السلوك ،جـ٤ ،ق٢ ،ص٨٧١ ،سنة ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م. وهذا يدل على أن أدواء التنازل عن الوظيفة لغير المؤهلين ، وشيوع الفساد المرتبط بذلك كدفع الرشاوى ، و عدم الاعتداد بالكفاءة عند تولى المناصب ظل مرضاً عضالاً ينخر كالسوس فى الدولة المملوكية رغم صدور قرار بالتصدي لذلك منذ حوالي عشر سنوات إلا أن الداء استفحل ، ولم ينفذ القرار.

(٢) ابن طولون الدمشقي: قضاة دمشق ، ص١٥٨.

(٣) المصدر السابق: ص١٦٦.

(٤) النعيمي: الدارس جـ١ ،ص٣٧٨.

(٥) كما هو الحال مع (شرف الدين الكَفْرى) ،الذى استعاد تدريس المدرسة الركنية بالصالحية . (ابن كثير: البداية والنهاية ،جـ١٤ ، ص٣٠٣ ، وابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٢ ،ص١٤٨ ،سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م.

ج- قد يكون النائب على غير المستوى المنشود ، فينكر الناس عليه ذلك. (كإنكارهم على شاب ناب عن والده شهاب الدين بن الكشك سنة ٨٣٧ هـ/ ١٤٣٣م)[١].

ملاحظة: وأخيراً ، فكل ما تقدم من سلبيات يثير البلبلة، ويؤدي إلى عدم الاستقرار التعليمي في المدارس، ولكن ليست كل حالات التنازل والتناوب سيئة ؛ فهناك استثناءات ، منها:

- أن يتنازل والد عن التدريس لابنه الصبي ذي الخمسة عشر عاماً، ومع ذلك يحيي الناس ذلك في المدرسة الإقبالية؛ نظراً لتميز هذا الصبي وكفاءته، التي اتضحت من خلال درس ألقاه في تفسير سورة الكهف[٢].

- تُحمد النيابة عن مدرسين صغار غير مؤهلين علمياً، ورثوا منصب التدريس عن والدهم، فيُناب عنهم[٣] حتى تأهلهم لحمل المسئولية.

ثانياً ـ العنصر الثاني ــ الهيئة المعاونة:

معنى الهيئة المعاونة ووظائفها :

نعني بها المعيدين بالدرجة الأولى؛ لأن لهم وظيفة مهمة في المدارس تجاه المدرسين والطلاب معاً. ويشرح القلقشندي معنى وظيفة (معيد) ، فيقول: إنه يحتل المرتبة الثانية بعد المدرس، وأصل عمله أنه إذا ألقى المدرسُ الدرسَ و انصرف، أعاد المعيد للطلاب ما ألقاه المدرس إليهم ؛ ليفهموه و يحسنوه[٤].

---

(١) النعيمي: الدارس ، جـ١ ، ص٦٣٠ – ٦٣١.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص١١٠ ، سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م.

(٣) المصدر السابق: جـ١ ، ص٤٠٨ (كما هو الحال مع محمد بن عبدالله الصرخدي العالم بأصول الفقه ، الذى كان أجمع أهل دمشق للعلوم ، وأفتى ودرس وألف ، وكان يقال: إن قلمه أقوى من لسانه. توفي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م).

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص٤٦٤. وتجدر الإشارة إلى أن المدرس – لدى القلقشندى – هو الذى يتصدى لتدريس العلوم الشرعية ، مثل: التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك. وفي تقديرى: هو من يدرس العلم بكل أنواعه.

ومعنى ما تقدم أن المعيد دون المدرس، وأعظم درجة من الطلبة ، وكأنه يعين المدرس على نشر العلم، وأكثر ذكاء وقدرة وفهماً من الطلبة العاديين، فعمله يبدأ من حيث انتهى المدرس، ويشرح النقاط الصعبة للطلاب، ويساعد الذين لا يفهمون من الجولة الاولى[1]، وكذلك يقرأ المعيد النص للمدرس، ويقوم الأخير بشرحه، كما أن عليه مراجعة المحفوظات مع الطلاب[2].

ارتبطت وظيفة المعيد بالمدارس؛ لأنها جمعت طلاباً، تتفاوت مقدرتهم العلمية، فيحُتاج إلى من يأخذ بأيدي الضعاف، ليسايروا المتفوقين، وهذا بخلاف المسجد ، الذي تتعدد حلقاته، فإذا لم ينسجم الطالب مع مدرس الحلقة، ذهب إلى سواها مما يناسبه مستواها[3].

هذا ، وقد ورد مصطلح غير شائع في ترجمة: (محمد بن عيسى الدمشقي المتوفي سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م عن نحو خمسين عاماً)، حيث قال ابن حجر: "وصار نقيباً بالدرس، وحدّث. قال الشيخ الشهاب ابن حجي: كان لا بأس به"[4]. وذكر أحد الباحثين أن المعيد ليس هو نقيب الطلبة ؛ لأن الأخير واحد منهم، ورجح أنه هو الذي يتولى تسجيل حضور وغياب الطلاب مقابل زيادة مالية يحصل عليها[5].

والحق أن هذا التفسير جيد ما لم يكن بالمدرسة كاتب الغيبة، الذي يسجل حضور وغياب كل من بالمدرسة من طلاب وموظفين ومعيدين ومدرسين. ومن نص ابن حجر السابق يمكن أن نستنتج ملمحاً جديداً لهذه الوظيفة من الناحية العلمية، فلعل النقيب في مرتبة أدنى من المعيد، ويعمل كمساعد له خاصة في دروس الحديث، التي تحتاج إلى ضبط الروايات عند التحديث بها.

---

(١)د.أحمد شلبي: التربية والتعليم فى الفكر الإسلامي ، جـ٥ ، ص٢٥٦.

(٢) د.عبدالغني محمود عبدالعاطي: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة ،٢٠٠٢م ،ص٢٠٩.

(٣) د.أحمد شلبي: التربية والتعليم فى الفكر الإسلامي ،جـ٥ ،ص٢٥٦.

(٤) إنباء الغمر ،جـ١ ،ص١٦٨.

(٥) د.عبدالغني محمود عبدالعاطي: التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص٢١٠-٢١١.

لدينا نص مهم مفاده : أن الشيخ شهاب الدين بن حجي معيد الشامية البرانية جمع مجموعة من الطلبة وكتب لهم مسائل أنهاها إليهم بعد أن أذن له المدرس، وهؤلاء الطلاب هم: شهاب الدين بن نشوان، وفخر الدين بن خطيب كَفْر عامر، وشمس الدين بن أخت شرف الدين موسى الجراحي، ويعرف بابن زُهْرة (وهو أحسنهم جواباً)،وجمال الدين يوسف المَلْكاوي، وابنا المدرس: تاج الدين ، و جمال الدين[1].

ترجع أهمية هذا النص الفريد إلى الجديد الذي يمكن استنتاجه منه على النحو الآتي:

أ- أن العلاّمة ابن حجي – على عظم قدره وعلمه – كان يشغل منصب معيد بالشامية البرانية؛ وهذا يدل على رقي هذه الوظيفة من جهة ، وعلو مكانة هذه المدرسة وارتقاء مستواها العلمي ومستوى خريجيها من جهة أخرى، إذ المدرسون بها سيكونون أرقى من مستوى المعيدين بلا شك.

ب- أن النص يضيف وظيفة جديدة للمعيد، حيث قام بتجميع الطلبة النابغين و أخذ يبحث معهم قضايا علمية دقيقة ويكتب مسائلها، ويعتمد الحجة والنقاش وسيلة لتناولها، وأن هذا العمل كان بإذن من المدرس (ولم تصرح به الرواية) ، فهو تحت إشرافه، ويرجعون إليه عند الاختلاف، أو استشكال أمر عليهم.

ج- أن هذه الحلقة النقاشية لم تضم ضعاف الطلاب ليكرر عليهم ما قاله المدرس آنفاً حتى يفهموه ويحفظوه كما هو شائع في تعريف وظيفة المعيد، ولكنها ضمت التلاميذ النجباء، وفصلت الرواية – على غير المعتاد – أسماءهم وشرحت صلاتهم بشخصيات مبرزة على أغلب الظن، فأحدهم ابن خطيب، والآخر ابن أخت شخصية معروفة فيما يبدو، وهو أحسن المجموعة فهماً واستيعاباً وحضوراً وإجابة عن الأسئلة المطروحة للنقاش، والمدرس الذي لا نعرفه ابناه حاضران، فهي جلسة جمعت صفوة الطلاب (ستة طلاب) أتصور أنهم معيدون على المدى القريب، وعلماء ومدرسون

(١) ابن قاضى شهبة: تاريخه ،جـ٣ ،ص١٠٧-١٠٨ (سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م).

مبرزون على المدى البعيد بإذن الله، وهكذا تتم العناية بهم، ويمضي إعدادهم، وكأنها محاضرة للطلاب المتفوقين فقط.

ثمة وظيفة جديدة للمعيد ، أوردها نص آخر مفاده : أن المعيد بالمدرسة الشامية الجوانية جمال الدين بن قاضي الزبداني (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) كان يكتب بخطه بعض الطباق[١]

دارت مناقشة بين سراج الدين البلقيني مدرس الحسامية[٢]، والشيخ بدر الدين ابن الصاحب معيد الحسامية ، و جرى كلام من المعيد قيل : يكفره ، و عُقد للمعيد مجلس القضاء ، لكن لم يثبت عليه شيء فتمت تبرئته ، و استمر على وظائفه ، لكنه أوذي معنوياً[٣]. و هذه الرواية تدل على أن المعيد كان يناقش المدرس أحياناً ، و تحتدم المناقشة بينهما لدرجة أنها تُفضي إلى التفوه بكلمات تقتضي انعقاد مجلس القضاء للفصل بينهما.

الوضع المادى للمعيدين :

الحق أننا لم نقف على تفصيلات مرتبات المعيدين فى المدارس الدمشقية المختلفة ؛ لاهتمام المصادر بالمدرسين على حساب المعيدين ، لكن من خلال بعض المعلومات التى وقفنا عليها، يمكننا إلقاء بعض الضوء على هذه الجزئية ، وذلك فى النقاط الآتية :

أ- توجد إشارات عديدة تشى بكفاية دخل المعيدين فى بعض المدارس ، مثل : المعيد محمد بن على السرى بالمدرسة البادرائية ، الذى كان يخضب بالسواد[٤]. وهذا

---

(١) النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ٣١١ . كاتب الطباق أو الإجازة : فى مجلس الحديث تكتب إجازة الرواية للحاضرين والمستمعين بكتابة أسمائهم ، أما المتغيب فيكتب اسمه ، وإلى جانبه : فاته من باب كذا إلى باب كذا. (محمد أحمد دهمان : مقدمة تحقيقه لكتاب القلائد الجوهرية لابن طولون الدمشقى ص٢١).

(٢) هى الشامية البرانية (النعيمى : الدارس ، حـ١ ، ٢٧٨).

(٣) تاريخ ابن قاضى شهبة : جـ٣ ، ص٩٢ – ٧٨٤ه/ ١٣٨٢م.

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢٨٦ (ت٧٨٥ه/ ١٣٨٣م).

يعنى أنه ظل فى وظيفته عمراً مديداً حتى شاب شعره[1]، وخضبه بالحنّاء السوداء ، فلو كان دخله لا يكفيه لترك الإعادة ، أو لعمل فى مدارس أُخر، وهو الشىء الذى لم يشر إليه ابن حجر .

ب- ثمة معيد آخر عمل لمدة طويلة فى المدرسة البادرائية ، ثم تركها أول سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م ، ثم عمل بالمدرستين الشاميتين وغيرهما من المدارس ، وتزوج[2]. وهذا نموذج مختلف عن النموذج السابق ، فالمعيد هنا ، توجه للعمل بعدة مدارس ؛ وذلك لتطلعه إلى الزواج ، وتوفير إمكاناته . وعلى كل ، فعادات الأفراد مختلفة ، ومتطلباتهم وتطلعاتهم متباينة ، فالدخل الذى يكفى البعض ويرضيه ، يشكو من قلته آخرون.

ج- ذكر ابن طوق فى (يومياته) : أن القاضى شهاب الدين بن حجّى ذهب إلى بيته الشيخ علاء الدين وسلّمه عشرة آلاف درهم دمشقية كراتب له عن نصف الإعادة، ومقابل طعامه ، وإشرافه على شئون المدرسة البادرائية لآخر سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م[3].

النص المتقدم يفيد ذهاب الكاتب إلى بيت المعيد ؛ لتسليمه مستحقات متأخرة له من سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ، ويفهم من هذا عدم انتظام صرف المرتبات فى المدارس (تأخرت حوالى عامين) ! ولعل المبلغ المذكور يمثل راتب عام كامل ، لكنى لا أستطيع تحديد مرتبه معيداً منفصلاً عن الرقم الإجمالى ؛ لأنه ورد مضافاً إليه أجر أعمال أخرى يؤديها ابن حجى فى المدرسة المذكورة. ونلاحظ – أيضاً– أنه كان يقتسم عمل

---

(١) وهذا يعنى رقى المدرسه البادراتيه علميا وماديا ، ولعلها ارقى من غيرها ، فهناك مدارس تقبل من المعيد العمل بها مدرساً فى حالة جمع بعضهم بين أكثر من وظيفة فى أكثر من مدرسة ، كما سنرى قريباً . وثمة جانب علمى يجعل البعض يقبل الاستمرار فى وظيفة معيد ؛ لوجود مدرس ذى علم وخبرة ، يجد فى العمل تحت إشرافه مزيداً من العلم والمعرفة . (د. أحمد شلبى : التربية والتعليم فى الفكر الاسلامى ، ج٥ ، ص٢٥٧).

(٢) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص١٤٠ . والحديث عن (إبراهيم بن عيسى الخليلى الدمشقى ، توفى سنة ٧٨٦ه/ ١٣٨٤م).

(٣) التعليق ، ج١ ، ص١٧٧ ، سنة٨٨٧ه/ ١٤٨٢م).

ودخل الإعادة مع آخر لا نعرفه ؛ مما يجعلنا نرجح أن يكون دخله – كمعيد متميز– كبيراً . ويلاحظ تعدد المعيدين فى المدرسة الواحدة أحياناً[1]؛ مما قد يؤدى إلى ضعف رواتبهم . وقياساً على وجود سكن للمدرسين فى مدارسهم ، وكذلك الطلاب ، أميل للقول بوجود مساكن للمعيدين أيضاً ، وإن لم أجد نصوصاً دالة على ذلك .

- **نماذج جيدة للمعيدين :**

– معيد بالبادرائية كتب كثيراً من كتب العلم بخطه المليح ، وأقبل الناس على شرائها بثمن مرتفع ؛ نظراً لصحتها ، وطلب علم الحديث ، وحرّر و جوّد ألفاظه وضبطها[2].

– معيد بالمدرسة الشبلية ، يؤهله مستواه للتدريس والفتوى[3].

– معيد مفسر ومن كبار الفقهاء الحنفية ، ودرس بالمنصورية والناصرية والظاهرية والصالحية[4]، وآخر باحث مناظر ، ملمّ بالقراءات ، والنحو بالمدرسة الغزالية بدمشق[5].

– دمشقى يرحل إلى مصر ، ويعمل بها معيداً فى عدة مدارس ، ويموت بها ويدفن [6]، ومصرى يعمل معيداً بدمشق بالمدرسة الدولعية[7].

---

(١) كما فى المدرسة الأمينية. (النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٠٣) ، والمدرسة البادرائية (المصدر السابق ، ج١ ، ص ٦٤، ٢١٤).

(٢) السابق : ج١ ، ص٦٤ (على بن أيوب بن منصور ، المعروف بعلاء الدين المقدسى الشافعى ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

(٣) علاء الدين بن بشارة (ت٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م). السابق : ج١ ، ص٥٣٦.

(٤) هو محمد بن على بن عبد القوى الحنفى الدمشقى المتوفى سنة٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م). (الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج٤ ، ص٢١٣).

(٥) هو إبراهيم بن عمر الجعبرى المتوفى سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م). (المقريزى : المقفى ، ج١ ، ص٢٤٢ ، وابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج١ ، ص١٣١-١٣٣.

(٦) المقريزى : المقفى ، ج١ ص٢٤٢ (ت٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م).

(٧) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٤٨ (الفخر المصرى ت٧١٥هـ/ ١٣١٥م).

• **بعض النماذج السلبية للمعيدين:**

– معيد بالبادرائية كان سليم الفطرة ، على سمت السلف ، لكنه خطه ضعيف ، ومع ذلك نسخ كثيراً ، ووقف كتبه[١].

– ظلت المدرسة الشامية الجوانية معطلة عن العمل ، لا يحضر بها أحد مدة سنين ، ومع ذلك فإن المدرس محيى الدين المصرى ، والمعيد اللوبيانى يَقبضان مرتبهما كاملاً، بينما يحصل الفقهاء (لعلهم القضاة بها) على دخل يسير جدا[٢].

وفى سنة ٨٢١هـ/ ١٤١٨م : تم تعمير المدرسة الشامية الجوانية ، وكان الشيخ تقى الدين اللوبيانى المعيد يباشر شئون المدرسة هو والمدرس ويقبض راتبه ، فلما جاء الأمير محمد بن منجك ينظر أوقاف المدرسة ، وتكاليف تتمة عمارتها وبياضها ، فكتب المعيد بأنها تكلفت أكثر من عشرين ألفاً بقليل ، فطولب اللوبيانى المعيد بسداد هذه الأموال هو وغيره (ربما تسترجع من راتبه الذى كان يتقاضاه) ، وشكا الأمير المعيدَ إلى نائب دمشق (بلبك العلائى) بأنه اختلس من مال الوقف عشرين ألفاً ، ولا يريد أن يدفع شيئاً ، فلم يُسمع للمعيد دفاع ، وضربه النائب ضرباً كثيراً (أكثر من ثلاثمائة عصا فيما يقال) ، ثم اعتذر له [٣].

• **معيدون يجمعون بين الإعادة والتدريس (أو غيره من الوظائف) :**

– المعيد الشهاب الأذرعى (ت٧٨٣هـ/ ١٣٨١م) يعمل معيداً بدار الحديث البهائية ، ويدرس بعدةَ مدارس ، وفتاواه مشهورة ، وهو من تلاميذ الذهبى والمزى ، وكانا من المعجبين به[٤].

– القاضى إبراهيم بن أحمد الزرعى الحنبلى : كان معيداً بالمدرسة الصدرية ، والجوزية ، والمسمارية ، ومدرساً بالحنبلية ، وناظراً بها [٥]

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢٩٢ (إبراهيم بن عيسى الحلبى المتوفى سنة ٧٨٦ه/ ١٣٨٤م).

(٢) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣١١ .

(٣) المصدر السابق : ج١ ، ص٣١٢-٣١٣.

(٤) السابق : ج١ ، ص٥٦-٥٧.

(٥) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج٥ ، ص٣٠٨-٣٠٩.

- معيد بالشامية الجوانية ، ومدرس بالشامية البرانية[1].

- الحسين بن على بن بشارة الشَّبْلى (ت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م): كان ناظر الشبلية بدمشق ومعيدها ، وخازن الكتب بدار الحديث الأشرفية[2].

- **وظيفة المعيد بين التنازل والنيابة والتبادل :**

- تنازل محمد بن خلف الغزى عن تدريس التقوية ثم الناصرية ، وظل معيداً بالمدرسة الركنية ، والمدرسة العادلية الصغرى ، وبها توفى[3].

- معيد يتنازل لأخيه عمر بن حجى الدمشقى بالمدرسة الأمينية[4]، وتنازل ابن قاضى عجلون عن إعادته فى الشامية البرانية لابن أخيه ، وما دُفع من مال لأجل ذلك[5].

- معيد ينوب عن ابن حجى لمرضه[6]، وآخر ينوب عن غيره مدة فى تدريس المدرسة الشامية الجوانية[7].

- تبادل وظيفة الإعادة بين شمس الدين الواسطى نزيل الشامية الجوانية (المعيد بالمدرسة الشامية البرانية) ، والقاضى بدر الدين الزرعى معيد المدرسة الناصرية[8].

العنصر الثالث – المقررات الدراسية :

نحاول – فى هذه الجزئية – عرض العلوم ، التى كانت تدرس – إجمالاً – فى المدارس الدمشقية، من خلال معرفة موضوعات الدروس الملقاة على الحضور . وأعتقد أن المدرس كان يختار الكتب التى يدرسها لطلابه ، ويلزمهم باستيعابها ، ولعله كان مسئولاً عن إتمام تدريس المقررات الكفيلة بتخريج أجيال من العلماء.

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١١ ، ص٤٣.

(٢) التميمى : الطبقات السنية ، ج٣ ، ص١٥٠.

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج٩ ، ص١٥٥.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٦ ، ص٧٨.

(٥) راجع تفاصيل ذلك ومراسمه فى : ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٣٠- ٣١.

(٦)النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٨٩.

(٧) هو جمال الدين بن قاضى الزبدانى (المصدر السابق ج١ ، ص٣١١).

(٨) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٢ ، ص٣٦١ ، سنة٧٧١هـ/ ١٣٦٩م.

عرفنا – من قبل – وجود مكاتب لتعليم الأطفال خاصة الأيتام ، ولعلها مرحلة تسبق مرحلة الالتحاق بالمدارس فى حوالى الحادية عشرة فيما أتصور . وتهتم هذه المكاتب بتعليم الأولاد القرآن والقراءة والكتابة ، ولعل بعض المدرسين بها كان يركز على تفصيح الأولاد فى الحروف الصعبة ، أى : تصويب النطق عندهم ، ومعالجة عيوب مخارج الأصوات ، كما كان يقوم بذلك المالينى (ت٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) فى المدرسة الصارمية[١]. ولعل الأطفال بعد ختم القرآن كانوا يدرسون مقدمة فى النحو ، ومختصراً فى الفقه ، مثل : كتاب المنهاج [٢].

- **من مقررات القراءات والتفسير :**

لاشك أن تدريس القرآن وتحفيظه لطلاب المدارس فى دمشق بقراءاته المختلفة كان هدفاً رئيساً فى مدارس القرآن[٣]. ويلحق بالقراءات دروس التفسير ، وهى كثيرة، وتمثل قاسماً مشتركاً فى العديد من مقررات المدارس ، ومن نماذجه ما يلى :

- درس رائع لابن تيمية فى تفسير (البسملة) بدار الحديث السكرية[٤].
- تدريس أول سورة الفتح [٥].
- شرح آية : " وعدكم الله مغانم كثيرة"[٦].
- دراسة آية : " إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها"[٧].
- تفسير آية : " ومن يتق الله يجعل له مخرجاً" فى المدرسة الظاهرية الجوانية[٨].

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٣٠.

(٢)ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٤ ، ص١١٢ ، سنة٨٠١هـ/ ١٣٩٨م ، وابن طوق: التعليق ، ج٣ ، ص١١١٧– سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م.

(٣) تم ذلك – مثلاً – على يد ابن الجزرى (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م). ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٢٢ .

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٧٥. (١٧٢) المصدر السابق : ج١ ، ص٣٥٤.

(٥) السابق : ج١ ، ص٢٣٩. (و الآية المذكورة فى سورة الفتح : رقم ٢٠)

(٦) السابق : ج١ ، ص٥٤٧ (والآية المذكورة فى سورة النساء : رقم ٥٨).

(٧) ابن طوق : التعليق ، ج٢ ، ص٨٩٩– ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م. (والآية فى سورة الطلاق : الآية الثانية).

(٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٢٤٦ (والآية فى سورة فاطر : رقم ٢).

- تفسير آية : " ما يفتح الله للناس من رحمة" فى المدرسة الطيبانية[1].

وفى النهاية أرى أن العلماء فسروا لطلابهم القرآن كله فى مدارسهم [2]، لكن الذى الذى بين أيدينا من مادة ، يقتصر على دراسة آيات معينة.

- **من مقررات الحديث النبوى :**

اهتم سلاطين المماليك اهتماماً بالغاً بقراءة (صحيح الإمام البخارى) ، فكان يُقرأ بين يدى السلطان فى مصر ،وفى حضرة كبار رجال الدولة، ويتدارسه طلاب العلم، ويكتبون عنه بحوثاً[3]. وفى دمشق قرأ المحدّث علاء الدين الكندى (ت٧١٦هـ/ ١٣١٦م) صحيح البخارى مرات بدار الحديث النفيسية[4]، وحدّث به أحمد بن أبى طالب الصالحى الدمشقى (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م) بضعاً وسبعين مرة بمدارس دمشق والصالحية [5]، وعندما زار ابن بطوطة دمشق حدثنا عن مجالس سماع سماع الصحيح كاملاً هناك[6]، علاوة على قراءته فى النوازل والنكبات العامة[7].

أما صحيح الإمام مسلم ، ففى ضوء المادة العلمية ، لم يحظ بما حظى به صحيح البخارى ، وإن ورد ما يفيد التحديث به فى(المدرسة الصمصامية المالكية[8]وفى دار

---

(١) اضطلع الجمال المصرى الشافعى بتفسير القرآن ، وفسره كاملاً بالمدرسة العادلية بدمشق ، لكنه من علماء القرنين السادس والسابع الهجريين (ت٦٢٣ه/ ١٢٢٦م). (ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص٦٤-٦٥).

(٢) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٧٧(سنة٨٢٧ه/ ١٤٢٣م).

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ق٢ ، ص٦٧٧(سنة٨٢٧ه/ ١٤٢٣م).

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١١٥.

(٥)المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٣٢٦ ، والمقفى ، ج١ ، ص٤١٤.

(٦) رحلة ابن بطوطة : ص١٢٥-١٢٦.

(٧) حيث قرأه أهل دمشق فى وباء الطاعون سنة ٧٤٩ه/ ١٣٤٨م ، وذلك فى ثلاث ليال بالجامع الأموى مع الضراعة الضراعة والتوبة . (المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ق٣ ، ص٧٨٠).

(٨) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١٤.

الحديث الأشرفية[1]، وكذلك تم تدارس شرح صحيح مسلم[2]، وكذلك التحديث بكتاب (الموطأ) للإمام مالك[3].

- **من مقررات الفقه ، والسيرة النبوية :**

تدريس الفقه فى المدرسة الركنية من أول باب (الهبة) [4] – وتدريس ابن قاضى عجلون فى الشامية البرانية من كتاب (الحاوى الصغير) [5] – تدريس الحريرى الدمشقى (ت٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م) كتاب التنبيه للشيرازى وغيره [6] – ابن السراج الحنفى حفظ كتاب (الهداية) ، وألقاه على طلابه دروساً [7] – درس في فقه البيوع فى المدرسة الشامية البرانية[8] .

لم أجد اهتماماً كافياً بتدريس السيرة النبوية فى المدارس الدمشقية ، وإن كانت تقرأ في الميعاد[9]– قام ابن طوق الدمشقى بنسخ جزأين من السيرة النبوية لابن هشام غالباً بناء على طلب البعض[10]، فلعلها كانت تدرس – قراءة كتاب الشفاء (لعله للقاضى عياض ت٥٤٤هـ/ ١١٤٩م) فى المدرسة القيمرية[11] .

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج٢٢ ، ص١٤٢ .

(٢) كان أصيل الدين الأسلمِى قاضى الشام يلقى دروسه غالباً منه . (ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٢٧–١٢٨) .

(٣) حدث به فخر الدين بن سلامة (ت٧١٨ه/ ١٣١٨م) فى المدرسة الصلاحية المالكية بدمشق . (النعيمى : الدارس الدارس ، ج٢ ، ص١٤) .

(٤) المصدر السابق : ج١ ، ص٢٥٩ ، ٢٦١–٢٦٣ .

(٥) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٢٠٧– ٨٨٧ه/ ١٤٨٢م.

(٦) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٠ ، ص٢٦٩.

(٧) المقريزى : المقفى ، ج٦ ، ص٤٣٤.

(٨) ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، ص٩٨(سنة ٨٩٥ه/ ١٤٨٩م).

(٩) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ،ص٣١٥.

(١٠) ابن طوق : التعليق ، جـ١ ، ص١٧١ (سنة ٨٨٧ه/ ١٤٨٢م).

(١١) المصدر السابق ، جـ١ ، ص١٨٨ ، ١٩٥.

• **من مقررات النحو والأدب :**

قليلة هى المعلومات المتصلة بهذه الجزئية ، فلم أجد ما يتصل بدراسة الأدب فى مدارس دمشق ، وكل ما وجدته أن مقامات الحريرى كانت تدرس فى الجامع الأموى على يد تاج الدين اليمنى ، الذى قدم دمشق سنة٧٣١هـ/ ١٣٣٠م[١].

أما النحو فهناك إشارة إلى انعقاد درس حافل فى إعراب الآيات القرآنية بالمدرسة الناصرية الجوانية[٢]،كما أن الحريرى كان يدرس النحو فى (المدرسة الظاهرية) [٣].

• **دروس مشتركة فى علوم شتى :**

لعل هذه الدروس المرتبطة بالحديث ، والفقه ، والتفسير، وغيرها تشير إلى عقد العلماء مجالس علمية غير متخصصة ، يحضرها العامة والخاصة ، يطوفون من خلالها بين جنبات علوم كثيرة ، فالإخنائى (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م) شرع فى تفسير القرآن ، وشرح جملة من أحاديث البخارى[٤]، وغيره درّس كتاب(إحياء علوم الدين) للغزالى، للغزالى، وهو خليط من الفقه والروحانيات والرقائق[٥]، وكان القاضى فخر الدين المصرى الشافعى (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) يعطى دروساً فى التفسير والحديث والفقه فى المدرسة الدولعية بدمشق[٦]، وثمة درس حافل ألقاه إسماعيل بن كثير بالمدرسة النجيبية ، وحضر عنده الفقهاء والأعيان ، وأثنى عليه الحاضرون ، وتعجبوا من جمعه وترتيبه ، وكان ذلك سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م ، ودار الحديث عن تفسير قوله تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء" ، وتطرق الكلام خلال ذلك إلى الفقه ، وتناول ربا

---

(١) الكتبي : فوات الوفيات ،جـ٢ ، ص٢٤٦.

(٢) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٤٦٥.

(٣) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١ ، ص١٩٦.

(٤) ابن طولون الدمشقي – قضاة دمشق ، ص٩٤.

(٥) ابن طوق : التعليق ، جـ٣ ، ص١٤٣١.

(٦) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٤ ، ص٢٢٧-٢٢٨.

الفضل[1]، وتدريس كتاب (الحاوى) فى الفقه ، والكشاف للزمخشرى فى التفسير البلاغى للقرآن[2].

المقررات الدراسية بين التوقيتات و أعداد الطلاب :

يغلب على الظن تصميم المدرسين لمقرراتهم الدراسية ، موزعة على فترات زمنية محددة ، وفى ضوء أعداد الطلاب الحاضرين ، وما يمثله هذا من إقبال أو إحجام ، وما يستغرقه كثرة عدد الطلاب من وقت أطول فى عرض الموضوعات ، وإجراء مناقشات، والإجابة عن تساؤلات الطلاب .

تفاوت عدد الدروس السنوية التى يلقيها بعض العلماء غير المواظبين على الحضور ، وغير الحريصين على إفادة الطلاب ، فبعضها يبلغ سبعة عشر درساً فى الشامية البرانية ، وبعضها يهبط إلى سبعة دروس فى المدرسة العزيزية، وبعضها يزيد إلى إحدى وثلاثين مرة[3]، وهو – رغم ذلك– قليل بالنسبة لطول العام الدراسى ، ولا يتناسب مع راتب التدريس.

وولى تدريس المدرسة النورية الشيخ صدر الدين على البصراوى الحنفى بدلاً من ولى الدين السمرقندى ، الذى لم يشغل منصب التدريس إلا ستة أيام درّس بها أربعة دروس[4] (وهو معدل جيد). أما عمر بن رسلان البُلْقينى الشافعى (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، فقد حضر إلى دمشق سنة ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م ، ودرّس بالعادلية ، وبدار الحديث الأشرفية ، وكان ذا علم غزير وانطلاق فى الشرح والتوضيح، فلعله شرح فى بعض مدارس دمشق كتاب (الحاوى) فى الفقه فى ثمانية أيام، وهو من الأمور الغريبة[5].

---

(١) ابن كثير :البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص١٨٣ ،سنة ٧٣٦ه/ ١٣٣٥م. و الآية في سورة فاطر:الآية ٢٨.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ، ص٢٨٣-٢٨٤ ، سنة ٧٨٥ ه/ ١٣٨٣ م.

(٣) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٣٩٧-٣٩٨.

(٤) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص١٩ (سنة ٧٠١ه/ ١٣٠١م).

(٥) المقريزي : درر العقود الفريدة ، جـ٢ ، ص٤٣١- ٤٣٢ ، ٤٣٥-٤٣٦.

أما بالنسبة لحضور الطلاب ، فمن المعروف حضور العوام والخواص الدروس فى مدارس الشام خلافا لمدارس الدوله العثمانيه التى تنهج نهجا خاصا غالبا ، حيث لا يحضر إلا طلاب المدرسة مع مدرسهم[1]، لكنى أرى أن الدروس المتخصصة فى المدارس تجذب إليها طلاب العلم الملتحقين بالمدرسة غالباً[2]، وقد تفاوتت أعداد الحضور ما بين عشرين طالباً [3] وثلاثين[4]، وربما سوء أحوال الجو وشدة المطر تقلل الأعداد وتقلصها – أحياناً – إلى ما بين ثلاثة طلاب إلى أربعة[5].

العنصر الرابع – مواعيد الدراسة والإجازات :

هذا العنصر الجديد الذى نتناوله على درجة من الأهمية ؛ لأنه يرتبط بمدى الانضباط والالتزام والجدية فى إنجاح العملية التعليمية ، وذلك من كافة أطرافها أساتذة ، وطلاباً ، وإداريين، وعاملين) ؛ ولذلك سنحاول الكشف عن موعد بداية العام الدراسى ، وتوقيت عمل المدارس صباحاً ومساء ، وأيام الدراسة الأسبوعية ، والعطلات الطارئة التى تؤدى إلى توقف الدراسة أحياناً ، وموعد نهاية العام الدراسى والإجازات السنوية المعتادة . وغنى عن البيان أن ذلك كله يسبقه استعدادات المدارس لبداية الدراسة كل عام من توفير المدرسين المختصين بأعداد كافية ، ومعهم معاونوهم من المعيدين ، وقبول الطلاب الجدد ، وتهيئة الإداريين والعاملين لبدء الدراسة.

- **موعد بداية الدراسة ومواقيتها اليومية :**

من خلال النصوص المتوفرة لدىّ ، وهى متعلقة بالمدرسة الشامية البرانية ، رصد لنا المؤرخ الدمشقى ابن طوق فى يومياته بداية العام الدراسى بها يوم الأربعاء

---

(١) التميمي : الطبقات السنية ، جـ١ ، ص٣٥١-٣٥٢.

(٢) ابن طولون الدمشقي : مفاكهة الخلان ، ص٩٨ (سنة ٨٩٥ هـ/ ١٤٨٩م).

(٣) كما في المدرسة الحنبلية. (النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص١٠٤).

(٤) كما في الشامية البرانية. (ابن طوق : التعليق ، جـ٣ ، ص١١٦٤-٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م).

(٥) المصدر السابق : جـ٢ ، ص٩٩٩- سنة ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م (بالشامية البرانية).

التاسع من ذى القعدة سنة٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م ، وذكر أن هذا يقابل أول الثلث الثانى من الشتاء[١].

وفى العام التالى بدأت الدراسة يوم الخميس الخامس من ذى القعدة سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م[٢]، بينما بدأت فى العام الذى يليه يوم الاثنين الرابع من ذى القعدة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م[٣]. وهذا يعنى أن موعد بداية الدراسة فى هذه المدرسة كان ثابتاً تقريباً .

وبخصوص مواقيت التدريس اليومية ، فيبدو أنها متفاوتة حسب ظروف المدرسين ، وإن كنت أميل إلى فتح المدارس أبوابها ومنها : الشامية البرانية منذ الصباح المبكر [٤]، وقد يستمر الدرس الواحد إلى صلاة الظهر أو بعدها بقليل[٥]. وذكر لنا ابن ابن طوق أنه حضر الدروس فى المدرسة البادرائية ، والدولعية حتى أذان الظهر ، ثم عاد إلى بيته[٦]، فربما استمرت الدراسة بعدها بقية اليوم . وقد تكون الدراسة وقت العصر كما ورد عن قاضى القضاة الشافعية على بن عبد الكافى السبكى (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) فى المدرسة الشامية[٧] ، وبعد العصر فى المدرسة الفارسية[٨].

---

(١) السابق : جـ١ ، ص٢٩.

(٢) السابق : جـ١ ، ص١٠٣.

(٣) السابق : جـ١ ، ص٢٠٦

(٤) السابق : جـ١ ، ص١٥٥.

(٥) المقريزي : درر العقود الفريدة ، جـ٢ ، ص٤٣٥.

(٦) التعليق : جـ١ ، ص٢٤٤.

(٧) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، ص٢٦٩.

(٨) ابن طوق : التعليق ، جـ٣ ، ص١٣٨٧.

أيام الدراسة الأسبوعية[1]:

غالب الظن أن المدارس كانت تفتح أبوابها طيلة أيام الأسبوع ، ولعل الدراسة تعطل يوم الجمعة ، ولكل مدرس مواعيده الخاصة به ، التى تتناسب مع أعبائه ووظائفه المتعددة ، فمثلاً : قاضى القضاة شمس الدين الونائى (ت٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) دَرّس بدمشق فى الغزالية ، والعادلية والبادرائية ، ودار الحديث الأشرفية . ويبدو أنه كان يريد إلقاء دروسه يومى الأحد والأربعاء ، فقيل له : إن الفقهاء مشغولون فى هذين اليومين ، ولابد لهم من حضور دروسه ، فتحول للتدريس يوم السبت بالأشرفية ثم بالعادلية الكبرى ، بينما يدرس يوم الثلاثاء فى الغزالية والبادرائية [2]

وكان جمال الدين الطيمانى يدرس فى المدرسة الجوانية يوم الأحد ، وكذلك كان يدرس شهاب الدين بن نشوان فى (العذراوية) فى اليوم نفسه[3]وكان قاضى القضاة نجم الدين بن حجى يدرس يوم الأحد فى مدرستين : الظاهرية ، والركنية ، ويوم الأربعاء فيهما أيضاً ، إضافة إلى الناصرية[4].

وفى المدرسة الظاهرية الجوانية كان جمال الدين بن قاضى الزبدانى يدرس بها يوم الأحد[5]. أما علاء الدين بن القلانسى ، فكان يحاضر طلابه فى المدرستين : الأمينية ، والظاهرية يوم الأربعاء أيضاً [6]. ومن استقراء وتتبع مواعيد الدراسة الأسبوعية ، وتحركات المؤرخ ابن طوق الدمشقى وشيخه ابن قاضى عجلون تبين أن الأخير كان

---

(١) راجع ما أورده عن ذلك : سعود محمد العصفور : الحياة الثقافية في دمشق في عصر المماليك الجراكسة ، ص١٣١-١٣٢ ، و د. داود عبد الملك : الإدارة التربوية العربية الإسلامية ، المجلد الرابع ، الجزء السابع من موسوعة الإدارة العربية الإسلامية ، ص١٧٤ .

(٢) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٤٤-٤٥ ، و ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص١٧٢ . و ترجمة الونائي المذكور موجودة باقتضاب في : السخاوي : الضوء اللامع ، جـ١ ، ص٢٤٣.

(٣) النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٣٠٩.

(٤) المصدر السابق : جـ١ ، ص٣٠٩، ٣٥٣ ، ٤٦٤.

(٥) السابق : جـ١ ، ص٣٥٢.

(٦) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص١٦٤ (أحداث سنة ٧٣٢ه/ ١٣٣١م)،والنعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٣٥٢.

يلقى دروسه التى يحضرها ابن طوق وغيره فى المدرسة الشامية البرانية أيام : الأحد ، والثلاثاء ، والخميس[١]، واختص البادرائية بيوم الخميس وحده [٢].

العطلات والإجازات :

من الأمور البدهية تعطيل الدراسة فى مدارس دمشق أيام الجمع ، والأعياد (الفطر ، والأضحى) ، ولعلها تعطل فى موسم الحج أيضاً[٣]. وعادة تعطل فى شهر رجب ، ثم صارت تعطل أواخر جمادى الآخرة ، ثم صارت فى نصفه ، ثم عطلت فى مستهل جمادى الأولى وذلك سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م[٤]. وبالإضافة إلى المناسبات السابقة كثيراً ما كانت تتوقف الدراسة ؛ بسبب الظروف المناخية القاسية فى الشتاء كالأمطار الغزيرة والسيول التى تغرق الطرقات والمدارس ، والبرد القارس والثلوج المتراكمة فوق الأسطح والجبال وفى الشوارع[٥]. وكذلك تعطل الدراسة فى بعض الأعوام لانتشار الطاعون[٦]، أو فى مدرسة بعينها لسبب يخصها[٧].

مـــن خلال يوميات المؤرخ الدمشقى ابن طوق ، تتبعت – من قبل– تواريخ بداية العام الدراسى فى عدد من السنوات. بدأت الدراسة سنة (٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م) فى

---

(١) ابن طوق : التعليق ، جـ٣ ، ص١١٠٥، ١١٠٧–١١٠٨ ،١١١١–١١١٣.

(٢) المصدر السابق : جـ٣ ، ص١٠٩٢ ،١٠٩٥ ،١١١٣.

(٣) ذكر بعض الباحثين مزيداً من العطلات ، مثل : شـهري شـعبان و رمضـان ، و تاسـوعاء و عاشـوراء في شـهر المحرم. (سعود محمد العصفور : الحياة الثقافية في دمشق في عصر المماليك الجراكسة ، ص١٣٢).

(٤) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، جـ٣ ، ص٥١١.

(٥) المصدر السابق : جـ٣ ، ص٣١ ، ١٣٠.

(٦) المصـدر السـابق : جـــ٣ ، ص ٦٦٣ (سـنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م)، و النعيمـي : الـدارس ، جـــ١ ، ص٢٩١ (سـنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م).

(٧) مثل : إغلاق الشامية البرانية أمام الفتوى و التدريس ؛ احتجاجاً على شيوع الفواحش و الموبقات ، و عدم تدخل تدخل السلطات لمواجهتها بصرامة و حزم ، فأغلقت المدرسة لحين تطهر المجتمع مما فيه. (ابن طوق : التعليـق ، جـ٢ ، ص٦٧٢–٦٧٣ ،٦٧٦ – سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م) ، و كذلك تعطيل الدراسة فى الغزالية ؛ للانشغال بجمع المشمش (٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩م)، و ابن قاضى شهبة : تاريخه ، جـ٣ ، ص٣٣٥.

التاسع من ذى القعدة ، وختمت فى الشامية البرانية[1] يوم الأحد التاسع عشر من ربيع الآخر سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م[2].

وفى سنة ٨٨٦هـ: بدأت الدراسة فى الخامس من ذى القعدة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م ، وختمت الدروس يوم الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م[3]، ولعله ختام مؤقت ؛ بسبب موسم الحج ، و استؤنفت الدراسة بعد ذلك ، و ختمت الدراسة يوم الأربعاء الخامس عشر من ربيع الآخر ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م (أول الصيف)[4].

وفى سنة ٨٨٧هـ : بدأت الدراسة فى الرابع من ذى القعدة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م ، وختمت يوم الأربعاء السابع والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م[5] ، ولعل الدراسة استؤنفت بعد ذلك كسابقتها.

سكت ابن طوق عن ذكر تاريخ بداية العام الدراسى فى سنوات : ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م ، ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م ، ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م ، ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م ، ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م ، واكتفى بذكر تواريخ ختم الدروس فى هذه السنوات كالآتى :

أ- ختمت الدروس بالمدارس فى : يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م[6].

---

(١) ابن طوق : التعليق ، جـ١ ، ص٥٣. جرت العادة على اقتداء مدارس دمشق بالمدرسة الشامية البرانية ، فإذا ختمت الدراسة بها ، ختمت في بقية المدارس،ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا المدرسة الركنية سنة ٨٨٧ه/ ١٤٨٢م، فتجاهلها القاضي الفقيه الشافعي ابن قاضي عجلون ، و لم يتوجه للتدريس فيها بعد انتهاء العام الدراسي في الشامية البرانية. (ابن طوق : التعليق ، جـ١ ، ص٢١١).

(٢) السابق : جـ١ ، ص٦٢.

(٣) السابق : جـ١ ، ص١١١.

(٤) ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، ص٤٨.

(٥) ابن طوق: التعليق ، جـ١ ، ص٢١١.

(٦) السابق : جـ١ ، ص٢٤٨.

ب- ختمت الدروس فى المدرسة الشامية البرانية يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ذى القعدة سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م[١].

ج- ختمت الدروس يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م[٢].

د- ختمت الدروس فى المدرسة الشامية البرانية يوم الأحد التاسع والعشرين من ذى القعدة سنة٨٩١هـ/ ١٤٨٦م[٣].

ه- ختمت الدروس فى المدرسة الشامية البرانية يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م[٤].

و- ختمت الدروس فى المدرسة الشامية البرانية يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م[٥].

ويلاحظ على ما تقدم ما يلى :

أ- كثرة العطلات والإجازات فى دمشق بما يعطل الدراسة فى المدارس فترات غير قصيرة ، بعضها للأعياد والمناسبات ، وبعضها لظروف طارئة قاهرة ، وبعضها لأسباب خاصة بمدارس معينة . وكان يجب الاقتصاد فى العطلات ، فما الداعى لتعطيل الدراسة شهور جمادى الأولى ، والآخرة ، ورجب ؟!

ب- فى السنوات التى رصدنا بداية ونهاية الدراسة فيها ، تبين أن العام الدراسى قصير يبدأ عادة فى ذى القعدة ، وينتهى فى ربيع الآخر ، وتتخلله إجازة موسم الحج ، والعطلات الطارئة الأخرى .

ج- أتساءل : لماذا لا تكون الدراسة في الربيع و الصيف بدلاً من الشتاء القارس، الذي يعطل الدراسة ؟! ثم لماذا تتوقف الدراسة من ربيع الآخر إلى ذي

---

(١) السابق : جـ١ ، ص٥٤٣

(٢) السابق : جـ٢ ، ص٦١٦.

(٣) السابق : جـ٢ ، ص٦٦٦.

(٤) السابق : جـ٢ ، ص٩٠٠.

(٥) السابق : جـ٢ ، ص١٠١٧.

القعدة مع بداية العام الدراسي الجديد ؟! كان من الأجدى إطالة أمد العام العام الدراسي إلى بداية رمضان مثلاً.

د- في السنوات التي لم يحدد لنا فيها بداية العام الدراسي ، حدث اختلاف في تواريخ نهاية الدراسة ، فأحياناً تتوقف في ربيع الآخر كالمعتاد ، و أحياناً تتوقف في ذي القعدة الذي يفترض أنه الشهر الذي تبدأ فيه الدراسة ، و لعل مرد ذلك إلى سنوات توقفت فيها الدراسة تماماً لانتشار الأوبئة و الأمراض.

العنصر الخامس – أساليب التدريس:

أقصد بذلك الطرق و الوسائل التي استخدمها المدرسون في توصيل العلوم ، التي تحتويها المقررات الدراسية إلى طلابهم بالمدارس الدمشقية. هذه الأساليب لا توصل العلم فحسب ، و لا تحشو به عقول و ذواكر هؤلاء الناشئة ، و إنما تكوّن شخصياتهم ، و تصقل قدراتهم و مهاراتهم. إن العلماء يعانون التوزع بين التعليم و التأليف ؛ فكثرة الاشتغال (تعليم الناشئة) ينافي حسن تصنيف الكتب غالباً[1]، و نحن في حاجة – في حلقات العلم – لمن لسانه أقوى من قلمه ، أو كلاهما فيه يستويان، كما أننا في حاجة إلى مدرس يحسن الإعداد لدروسه بالاطلاع الواسع ، و القراءة العميقة الواعية ، فذلك يكسبه ذاكرة حافظة ، وعقلاً بَحّاثة[2]، يكتسبها منه طلابه ، فيتعلمون الإبداع و ينفرون من فساد التقليد ، ويفهمون فارق ما بين التقليد الأعمى و الاتباع الواعي[3].

أـ طريقة التلقين:

و هذه طريقة تقليدية يكتفي فيها المدرس بالإلقاء ، و الطالب بالسماع ، إلا إذا تخللها شرح و تحليل و بيان ، لكنها حتى مع تلك الميزات و الإضافات الأخيرة ، تفتقر

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ، جـ١ ،ص٣١.

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٦ ،ص٨٢.

(٣) ابن عبد البر القرطبي : جامع بيان العلم و فضله و ما ينبغي في روايته و حمله،دار الفتح بالقاهرة ، د.ت، جـ٢ ، ص١٠٩.

إلى شحذ الأذهان ، و الفعالية في استجلاب ردود أفعال الطلاب ، و استكناه ما في أذهانهم من ملكات. و من مظاهر هذه الطريقة :

- حفظ المدرس كتاباً من أمهات الكتب ، و تدريسه للطلاب[1].

- الإلقاء من كتاب السيرة النبوية ، و من شرح صحيح الإمام مسلم غالباً ، فالمدرس يستحضر اليسير من المعلومات التي بهما ، و ينحصر فيهما و هو يلقي دروسه، و لا يستحضر ذلك المدرس من الفقه إلا قليلاً[2]، فهو معلم محدود الاطلاع ، ضعيف الذاكرة ، يكتفي بسرد القليل الذي يعرفه.

- اكتفاء المدرس بسرد بعض المتون التي يحفظها ، و إلقاؤها – دون شرح – على الطلاب بالمدرسة الإقبالية[3].

- علاء الدين الحراني (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م): يكتفي بالتلقين فقط ، و لا يتكلم غيره في درسه[4].

ب- العرض الغامض المعقد:

يحرص بعض المدرسين على العرض الغامض ، الذي يستهدف نوعاً من التعقيد، يستخدم خلاله ألفاظاً متقعرة لا يشرحها ، و كأنه يضفي على نفسه هالة زائفة من العلم. وممن اتصفوا بذلك: علاء الدين بن القلانسى (ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) مدرس الأمينية والظاهرية بدمشق [5]، وكذلك على بن محمد البغدادى الصوفى (ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) ، الذى كان عسيراً على الطلاب ، لا يَسْلَس قياده لهم ، ويطلب

---

(١) مثل كتاب : جامع الأصول،الذي كان يحفظ منه كل يوم دراسي ثلاثمائة سطر ، و لعل هذا المدرس (أحمد ابن الحسن الرازي ت ٧٤٥ه/ ١٣٤٤م) درَسه في المدرسة الخاتونية ، و المدرسة القصاعية. (التميمي : الطبقات السنية ، جـ١ ، ص٣٢٤-٣٢٥).

(٢) هو أصيل الدين بن عمر بن سليم قاضي الشام(ت٨٠٤ه/ ١٤٠١م). (ابن طولون الدمشقي: قضاة دمشق، ص١٢٧-١٢٨).

(٣) ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٢ ، ص٣٥٦، سنة ٧٧٠ه/ ١٣٦٨م.

(٤) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ١٩ ، ص١٤٨.

(٥) المصدر السابق ، جـ٢٢ ، ص١٣٨-١٣٩.

أموالاً على رواية الحديث (سمع عليه الصفدى بدار الحديث الأشرفية فى دمشق سنة٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م) [١].

جـ - دقة الأداء وعمق التناول:

وهذا نجده لدى بعض المدرسين ، الذين يحسنون تحضير دروسهم ، ويحررون قضاياها ومسائلها قبل إلقائها ، مثل : زين الدين الحرانى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) شيخ المدرسة الضيائية الحنبلية[٢]، وتقى الدين المقدسى (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) المدرس بالجوزية[٣]، ونجم الدين بن حجى (ت٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) المدرس بالشاميتين ، والركنية والظاهرية ، والغزالية[٤].

كان عمر بن رسلان الشافعى (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) مدرساً بالعادلية الأشرفية بدمشق ، ويقرئ الطلاب فى (مختصر صحيح مسلم) للقرطبى ، حيث يقوم طالب مالكي بالقراءة ، ويحضر عنده فقهاء المذاهب الأربعة ، فيتكلم المدرس على الحديث الواحد من الصباح الباكر إلى الظهر ، وهو لم ينته من شرح وتحليل هذا الحديث [٥].

وهناك عمر بن سراج الدين (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م) مدرس الظاهرية ، الذى يعتنى بتحضير دروسه ، فإذا كان الدرس فى باب من أبواب الفقه ربط بينه وبين نظيره فى باب آخر ، وبذلك الربط يتقن أبواب الفقه إتقاناً بالغاً ، شهد له به الحاضرون ، وأثنوا على براعته[٦].

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٢٢ ، ص ١٤١-١٤٢.

(٢) النعيمي : الدارس ، جـ٢ ، ص٩٨.

(٣) النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٣٥-٣٦.

(٤) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص١٤٣-١٤٥.

(٥) المقريزي : درر العقود الفريدة ، جـ٢ ،ص٤٣٥.

(٦) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ٢ ، ص٨٠.

د- العرض السهل الواضح:

يتميز بعض المدرسين بإجادة العرض ، وانطلاق الأفكار[١] ، والقدرة على توضيح الغامض فى الدروس[٢] ، ويسر التعامل مع الطلاب المبتدئين[٣] ، وحسن الإلقاء وفصاحة اللغة [٤]، وقوة الصوت[٥] ، والتأنى فى العرض بحيث لا ينتقل من موضوع لآخر إلا بعد إجادة تحضيره ، وإجادة الطلاب له[٦].

ه- المناقشة :

وهى طريقة جيدة تؤدى إلى حسن التفاعل بين المدرس وطلابه ، فالنقاش يعمق الأفكار ، ويصحح المفاهيم ، ويجيب عن التساؤلات . ومجالس المدرسين فى دمشق عامرة بالدروس الحافلة والحجاج العقلى بين ابن تيمية وعديد من العلماء[٧] ، وهناك دروس تبنى على المناقشة وعمل الأبحاث ، التى هى أفضل من مجرد تقرير المعلومات[٨] ، والبعض يعتمد على طريقة السؤال والجواب ، حيث يسأل الطلاب ، ويجيبهم المدرسون[٩]، وهذا يؤدى إلى التركيز على حسن الفهم ودقته بدلاً من مجرد الحفظ ، وبعض المدرسين لسانهم أفضل من قلمهم[١٠]. وقد يأتى بعض المدرسين العلماء المخضرمين ، مثل : على بن عبد الكافى السبكى (ت٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م) ،

---

(١) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص٣٠٦ – سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م.

(٢) السخاوي : ذيل رفع الإصر ، ص٤٧٨ .

(٣) ابن طولون الدمشقي : قضاة دمشق ، ص١١٠ .

(٤) نفسه.

(٥) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص٢٧٨. زين الدين بن المرحل (ت ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م) درّس بالشامية البرانية ، و كانت دروسه تشبهه. (النعيمي : الدارس ، جـ١ ، ص٢٨٤) ، و فُسّر هذا الوصف بأنه ذو شكل حسن، و إلقاء بديع ، فإلقاؤه الدروس رائع يشبه حسن جماله. (الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٣ ، ص٣٧٤).

(٦) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص١٢٢ ، سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م.

(٧) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٥ ، ص٢٥١.

(٨) راجع أهمية سؤال المتعلم للعالم في ابن عبد البر : جامع بيان العلم ، جـ١ ، ص١١٣ .

(٩) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٩ ، ص٩٥ ،٩٨.

(١٠) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، جـ١٠ ، ص٢٦٩ ، ٣١٦.

ويطلبون إلى الطلاب السؤال عما يَعنّ لهم ، حدث ذلك فى المدرسة الشامية وقت العصر ، إذ كان من المعتاد قديماً ذكَر المدرس العَصَر نكتةً ، فقال : اذكروا مسالة أستخرج منها نكتةَ (تعليقاً دقيقاً لطيفاً) ، فطلب إليه ابنه تاج الدين عبد الوهاب (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) تحديثهم عن مسألة : النكاح بلا وَلِىّ ، وكذلك سئل فى درس المدرسة الغزالية عن الدليل على تقبيل المصحف ، فقال : دليلى القياس على تقبيل الحجر الأسود ، ويدِ العالم ، والوالد ، والصالح ، ومعلوم أن المصحف أفضل منهم[1].
منهم[1].

وقد تتم المناقشة عن طريق إحضار كتاب يتم تقسيم قراءته على الطلاب فى درس العلم ، ويقومون بالقراءة على التوالى مع تعقيب كل منهم بشرح ما يقرأ تحت إشراف الشيخ ، الذى يتدخل بالتعليق والتصويب[2].

وقد تثور المناقشات الكلامية ، ويخطىء بعض الحضور ، ويتم التشنيع على بعض المتكلمين[3]، وربما تشتد وتيرة المناظرات والجدال ، فيضطر بعض الطلاب (أو الحضور عامة) إلى الانصراف[4].

ملاحظات:

أ- تنوعت طرق التدريس فى مدارس دمشق ، فبعضها ردىء كالتلقين ، والتعقيد ، وبعضها راقٍ، مثل : الدقة والعمق ، والمناقشة.

ب- لعبت طرق التدريس المتبعه دورا مهما فى تخريج اجيال متحصرة رافيه من طلاب العلم .

---

(١) كما تم ذلك على يد الشيخ ابن قاضي عجلون مع كتاب (الحاوي الصغير). (ابن طوق : التعليق ، جـ١ ، ص٢٠٧ (هامش١) – سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م).

(٢) ابن كثير : البداية و النهاية ، جـ١٤ ، ص٢٢٧-٢٢٨ ، سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م.

(٣) السخاوي : ذيل رفع الإصر ، ص٤٤٦.

(٤) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، تحقيق : د.علي عبد الواحد وافي ، الطبعة الثالثة ، دار نهضة مصر للطبع و النشر، القاهرة ١٩٨١م ، جـ٣ ، ص١٢٤٣-١٢٤٤.

ج- تتفق طرق التدريس الإيجابية المتبعة مع ما قال به ابن خلدون[1]، وما تواضع عليه التربيون المحدثون من : التدرج و التكرار ، وعدم إرهاق فكر المتعلم ، وعدم الانتقال من علم لآخر قبل هضمه وحسن فهمه[2].

العنصر السادس- تقييم المدرسين :

فى هذه الجزئية نحاول النظر فى إيجابيات وسلبيات المدرسين فى مدارس دمشق فى ق ٨، ٩هـ/ ق ١٤-١٥م من الناحية العلمية ، والخلقية والتربوية ، ويمكن رصدها فيما يلى :

إيجابيات علمية :

- تخريج مجموعة من المبرزين الشاميين[3].
- نبغ غير واحد من طلابهم[4].
- التدريس فى مدارس عديدة ، وتلامذته كانوا من الأعيان[5].
- غالب رؤساء المذهب الحنفى والمدرسين من طلابه ، وغالباً لا يفتون إلا بعد أخذ إذنه وخطه[6].
- الوصول بالطلاب إلى مستوى رفيع فى التجويد ، وإجادة القراءات السبع[7].

سلبيات علمية :

- بعض المدرسين لا يحسن تعليم الطلاب ، ولا يبحث[8].

---

(١) د.إسماعيل زروخي : موضوعات التعليم و مناهجه – رؤية خلدونية للنظام التربوي الإسلامي ، بحث نشر- في مجلة (حصاد) ، العدد التاسع ،حول ندوة المراكز الثقافية و العلمية في العالم العربي عبر العصور باتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، دار عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية ، ٢٠٠١ م ، ص٥٦٤-٥٦٦.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٥ ، ص٢٥٩.

(٣) المصدر السابق : ج١١ ، ص١٤-١٥ .

(٤) السابق : ج١١ ، ص٢١-٢٤.

(٥) التميمى : الطبقات السنية ، ج١ ، ص٣٢٥-٣٢٦.

(٦) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٢ ، ص٤٦٤-٤٦٥ ، سنة٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م.

(٧) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص٢١٦-٢١٧.

(٨) مثل : زين الدين بن المرحل (ت٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م). النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٨٤.

– ضعف لغة بعض المدرسين[1].

– التلعثم فى إلقاء الدرس[2].

– عجز القاضى الحريرى عن إلقاء الدروس ،وضحك الحاضرين[3].

– محدث أمى لا يكتب[4].

– درّس فى المدرسة المسرورية وغيرها ، وهو مزجى البضاعة[5].

– مدرس يصطدم بالطلبة[6].

– مدرس متعنت مع الطلبة ، ويطرح عليهم أسئلة صعبة[7].

إيجابيات خلقية وتربوية :

– المعلم يربى تلميذه كما يربي ابنه [8]– الإحسان إلى الطلبة والفقهاء فى رمضان خاصة[9]، والتودد إلى التلاميذ ، والثناء على فاضلهم ، والصبر عليهم [10]– محمد بن قوام الدمشقى : علم وتدريس ونزاهة بلا رشوة ولا سعى [11]، وغيره لايصارع فى وظيفة ولا غيرها (أحمد بن إبراهيم الدمشقى) [12]– الإحسان إلى الطلبة وتوزيع المال

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٧٩.

(٢) السابق : ج١ ، ص٤٧٢.

(٣) المقريزى : المقفى ، ج٤ ، ص٤٣٩.

(٤) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٤٥.

(٥) المصدر السابق : ج١ ، ص٢٤٨ – ٢٤٩ .

(٦) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٢ ، ص٣٧٧.

(٧) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١٠ ، ص٣٠٠.

(٨) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٧٢.

(٩) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٧٢.

(١٠) ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج١ ، ص٣٤–٣٥.

(١١) ابن تغرى بردى : حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، تحقيق : فهيم محمد شلتوت ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ١٩٩٠م ، ج١ ، ص٤٤١.

(١٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١ ، ص٢٠٨.

عليهم ، وعمل وليمة لهم[1] – القيام بشأن الطلبة ، والسعى لهم عند المشايخ ، وإفادتهم بالوظائف [2]– استضافة الأستاذ طلابه فى بستان ، وإطعامهم يومى : السبت، والثلاثاء كل أسبوع [3].

سلبيات أخلاقية وتربوية :

– فقيه حنفى فيه تكبر ، وخيلاء ، وتقعر [4] – رغم فقهه ودروسه الفائقة لم يتحمل نقاشاً فى درسه ، فرحل وترك ثلث المدرسة الشامية البرانية [5] – قبيح السيرة ، ، يجهر بالرشوة [6]– سوء الخُلُق والزندقة والمال الحرام [7]– تنازع على التدريس فى المدرسة العزيزية بين عالمين[8]– رغم حفظ محمد بن عمر بن حجى القرآن والمنهاج وغيرهما ، ينسب إلى المنكرات ، حتى فرح أهل دمشق فيه لما مات[9].

مدرسون جمعوا بين سوءات خلقية وعلمية :

أ– تقى الدين عبد الله بن شمس الدين بن التقى الحنبلى (ت٨١٥هـ/ ١٤١٢م): درّس بالمدرسة الحنبلية وأفتى ، رغم أنه عارٍ من العلم ، وكان ثقيل اللسان لا يكاد يُفهم كلامه ، ويبدو أنه ولى التدريس عن طريق معارفه من النواب ؛ لأنه كان يعمل قاضياً فى نابلس ، وراتبه ضعيف[10].

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٩ ،ص٢٩٢ .

(٢) السابق : ج٦ ، ص١١٦.

(٣) المقريزى : المقفى ، ج٦ ، ص٢٠٢–٢٠٣.

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١١ ، ص٣٨–٣٩ .

(٥) ابن طولون الدمشقى : قضاة دمشق ، ص١٣٠.

(٦) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٤٦–١٤٧.

(٧) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١٠٧ (وتم إجراء تصحيحى للإصلاح بينها بعد ذلك ص١٠٨).

(٨) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٨ ، ص٢٤٣ .

(٩) المصدر السابق: ج١ ، ص٣٩٥–٣٩٦.

(١٠) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص٧٧ .

ب- علم الدين الحجينى (ت٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) : درّس بمدرسة أبى عمر (العمرية الحنبلية) ، وكانت فتاواه قاصرة ، ولما ولى القضاء تساهل فى إصدار الأحكام، بحيث كانت كل قضية زور تروج عنده[١].

ج- تقى الدين اللوبيانى الدمشقى الشافعى (ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) : ولى إمامة المدرسة القواسية ، وكان معيداً بالشامية الجوانية والناصرية ، ودرّس بالعزيزية دروساً غير أمينة ، فيتطرق إلى أبواب الفقه ، مثل : باب الضمان ، دون أن يفرغ منها ، وكان حريصاً على تحصيل المال ، ويستحل الراتب من المدارس المختلفة دون حضور إليها ، وعاقبه نائب الشام (بلبك) ، وضربه ضرباً مؤلماً ، لكنه لم يرجع ، وكان عليه أن يعزله . أُثر عنه أنه كان يكتب فتاوى عجيبة ؛ لأن علمه بالفقه محدود ، ولم يتجاوز عموم ما قاله الفقهاء الأقدمون دون معرفة بتحقيق وتحرير المتأخرين . وخلاصة القول أنه مات بخيلاً مقتّراً على نفسه وأهله بعد أن ترك التدريس لعجزه بعد أن لم يتخرج به أحد من طلاب العلم فكرههم وكرهوه[٢].

العنصر السابع والأخير ـ الطلاب :

بعد أن ينهى الطلاب دراستهم في مكاتب تحفيظ القرآن ، يلتحقون بالمدارس ؛ ليتلقوا تعليماً نظامياً منضبطاً فى سن الحادية عشرة تقريباً[٣]. وقد سبق أن تعرضنا لهم فى بعض المدارس الدمشقية ، ولمسنا رعايه بعض الاساتذة هم علميا وماديا ومعنويًّا فى سنوات الدراسة، التى لا نعرف مقدارها ، وهذه الرعاية تمت بدافع أبوي تربوى إنسانى من المدرسين تجاه طلابهم، وسنلمس بعض جوانب الرعاية الرسمية للطلاب بعد قليل بإذن الله ، وصولاً إلى تخريج الطلاب من هذه المدارس بعد تحصيلهم العلوم الكافية ، ووصولهم إلى مستوى علمى يحصلون بموجبه من

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١٠٧-١٠٨.

(٢) وهى السن التى التحق فيها ابن طولون الدمشقى بالمدرسة بعد انتهاء فترة الكُتّاب .(راجع تحقيق المسألة فى: محمد أحمد دهمان فى مقدمة تحقيقه كتاب : القلائد الجوهرية لابن طولون) ، ص٢٤ .

(٣) هداية الله الحسينى : طبقات الشافعية ، تحقيق وتعليق : عادل نويهض ، الطبعة الثالثة ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ١٩٨٢م ، ص١٩٣.

مدرسيهم على إجازات (شهادات) التخرج ، التى تكفل لهم العمل فى مجال الوعظ والخطابة، والفتوى ، والقضاء ، والتدريس ، والحسبة ، وغير ذلك من الوظائف الإدارية الأخرى ، التى يضطلع بها العلماء غالباً ، وأشرنا إليها سابقاً.

رعاية الطلاب ماديًا ومعنويًا :

- يبدو أن الاهتمام بالطلاب كان من أولويات القائمين على شئون المدارس فى العالم الإسلامى عموماً ؛ حتى يتفرغ هؤلاء لطلب العلم ، فيكفونهم الطعام والشراب والملبس والمسكن بمدارسهم . وقد كانت الرعاية المتميزة التى يلقاها هؤلاء الطلاب دافعاً وحافزاً ومشجعاً لأقرانهم للالتحاق بالمدارس ؛ طلباً للعلم . يقول الإمام الغزالى (ت٥٠٥هـ/ ١١١١م) عن نفسه وإخوته لما نَفدَ ما تركه أبوهم لهم ، وتَعذَّر عليهم القوت : " فصرنا إلى المدرسة فى طلب الفقه ؛ لتحصيل القوت، فكنا نأخذ الجراية ونقتات به"[١].

- اهتمت المدارس بتقديم مرتبات وأطعمة وحلوى لطلابها (لاسيما الأيتام ، والغرباء الوافدين ، والفقراء) ، ففى دار القرآن الدلامية يسمح بالتحاق ستة من الفقراء الغرباء المهاجرين بهذه المدرسة ، يتعلمون القرآن ، ويحصل كل منهم على ثلاثين درهماً فى الشهر ، علاوة على إلحاق ستة أيتام بمكتب الأيتام بالمدرسة ولكل منهم عشرة دراهم شهريا ، وملابس للايتام (جبة قطنية ، وقميص ، ومنديل لكل منهم)[٢].

وفى دار القرآن الصابونية يتم إلحاق عشرة من الطلاب الفقراء من الأحناف يُعَلَّمون القرآن ، ولهم أماكن خالية مخصصة لهم للسكنى والإقامة[٣]. وفى دار القرآن والحديث التنكزية يتعلم اثنا عشر طالباً لكل واحد منهم سبعة دراهم ونصف شهرياً ، ولمستمعى الحديث النبوى الخمسة مثلهم من العطاء[٤].

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٠ ، وابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٢٤-١٢٥.

(٢) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٤-١٥. (٣٠٦) المصدر السابق : ج١ ، ص١٢٧.

(٣) المصدر السابق : ج١ ، ص١٢٧.

(٤) السابق : ج٢ ، ص١١١.

وفى المدرسة العمرية الحنبلية يحصل كل طالب على رغيفين طوال العام ، يصرف لكل فميص فى العام ايضا ، ويصرف هم اللحم طوال رمضان ، ويا كلون العدس يوم الجمعة ،والقمحية والزبيب ليلة الجمعة ، وتصرف لهم عباءة كل عام[١].

يبدو أن الإقامة فى المدرسة كانت وقت الدراسة ، وإن كان بعض الطلاب يحضرون وقت العطلات[٢]؛ تلمساً لبعض المساعدات ، أو تعلقاً بالمكان ؛ لما يلقى به من التجلة والاحترام ، والرعاية والحنان.

اهتمت المدرسة الشامية البرانية بتوزيع بعض الأطعمة بصفة مستمرة ، مثل : المشمش الحموى، وقَراصْيا (الخوخ المجفف بالشام) ، وبقسماط[٣]. ويبدو أن الجميع كانوا يأكلون منه بما فيهم المدرسون (الفقهاء) [٤]. وبعض المدرسين كانوا يتورعون ، فلا يأكلون جراية المدرسة ، كما فعل تقى الدين السبكى (ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) فى المدرسة الركنية الشافعية [٥]. وأحياناً يصوم الطلاب وغيرهم بالمدرسة صيام التطوع ويفطرون معاً بالمدرسة[٦].

يبدو أن أزمة غذائية وقعت بدمشق سنة٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م ، حين قلت الأمطار فى رمضان ، وجَفَّت الأودية ، فغلت الأسعار ، وبيع جُوالق (وعاء من الصوف) القمح بمائتى درهم ونحوها ، والخبز كل رطل بدرهم مع سوء حالته ، والخبز الأبيض ارتفعت أسعاره وندر وجوده [٧]. وفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م قلّت المياه أيضاً ، وارتفعت أسعار الخبز والأرز ، والموز ، والصابون [٨]، وتجددت الأزمة فى شهر شوال،

---

(١) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص١٤٩.

(٢) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١٦٣ – سنة٨٨٧ه/ ١٤٨٢م.

(٣) ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص٥٧ (سنة ٨٨٦ه/ ١٤٨١م) ، حين أحضروا للمدرسة الشامية البرانية ثلاثة أحمال مشمش ، وسلة قراصيا ، وفُرّق على الفقهاء بها وأكلوا.

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٥٤.

(٥) كما فى المدرسة الإخنائية (ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١٧٤ (سنة٨٨٧ه/ ١٤٨٢م).

(٦) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج١ ، ص٤٨٤.

(٧) المصدر السابق : ج١ ، ص٥٠٨.

(٨) السابق : ج١ ، ص٥١٠.

شوال، ولا تزال الأمطار قليلة ؛ مما زاد أسعار المحاصيل ومنها : الخضراوات ، وسعر الخبز عشر أواق بدرهم [1]. وانعكس ذلك – بطبيعة الحال – على تموين المدارس ، حتى وقف كثيرون من مدرسة الشيخ أبى عمر- فى شهر جمادى الآخرة سنة٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م- تحت قلعة دمشق ، يشكون لنائب الشام تأخر القمح الذى يتم توريده للمدرسة، وهو مائة غرارة (وعاء كبير أكبر من الجوالق) لم يصرفها لهم صاحب المخازن ، فعَدّ النائب ذلك إساءة أدب منهم ، وأمر بضربهم ، فضُرب كل منهم ضرباً مُبَرّحاً ، كل حسب سنّه ، حتى إن الطلاب الصغار منهم ضُربوا على أرجلهم بين يديه بسوق الخيل ، وتألم الناس لتلك القسوة ، وخافوا عليه عاقبة فعلته وانتقام الله منه . ويعلق ابن قاضى شهبة قائلاً : أخذ الله (تعالى) النائب أخذاً عاجلاً بعد تسعة أشهر ونصف على أقبح وجه[2].

وهكذا عُني المماليك بإمداد المدارس بما تحتاج إليه ، إلا وقت الأزمات الغذائية العامة ، وهى استثناء من القاعدة . وما تعرض له الطلاب من إهانة وعقوبة أمر نادر الحدوث ، فلم أقف على نص ، يفيد ضرب الطلاب بالمدارس والقسوة عليهم اللهم إلا بهدف التربية والتهذيب والإصلاح ، وتقدر العقوبة بقدرها[3]، بل العكس هو ما طالعته من رفع الضرب (إلغائه) بالمقارع (العِصِىّ) فى كُتّاب المدرسة الصمصامية

---

(١) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج١ ، ص٥٤٨.

(٢) حيث قام بعض سِفْلة الطلاب الحنابلة فى المدرسة الصالحية بضرب الشيخ زين الدين بن عمر الزهرى الضرير ، ، مدعين أنه اتهم ابن حنبل بالابتداع ، والحق أنهم ضربوه ؛ لأنهم منحرفون يعاقبونه على ما قال فى خطبة الجمعة فى الجامع الأموى عن تنزيه الله (تعالى) . وقد استنكر كبار الحنابلة تلك الواقعة ونفوا علمهم بها ، وقام النائب بالقبض عليهم وضربهم بالمقارع ومعاقبتهم. (ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١٣١-١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٩٤ ، ١٩٧- سنة٨٨٧ه/ ١٤٨٢م). وثمة عقاب آخر نزل من النائب على بعض طلاب مدرسة أبى عمر بصالحية دمشق اتهموا فيه بكسر قناديل مسجد الحنابلة بصالحية دمشق أثناء الاحتفال بختم صبى للقرآن ، ونفوا ذلك وألصقوه ببعض المدرسين . (ابن طولون الدمشقى : مفاكهة الخلان ، ص٥٠-٥١).

(٣) منع ذلك العقاب مدرس فقه نصرانى الأصل ، أسلم سنة ٧٠١ه/ ١٣٠١م ، وتوفى سنة٧٣٤ه/ ١٣٣٣م هو شمس الدين غبريال . (النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص٨-٩).

المالكية[1]. فالسائد – إذن – سد احتياجات الطلاب من الطعام والشراب[2]، والملبس، والملبس، ومستلزمات التعليم [3] من الدولة ، وأوقاف المدرسة كما سنرى فيما بعد، والحفاظ على كرامتهم .

عنيت المدارس بتخريج أجيال من الطلاب ذوى الشخصيات السويّة ، فرسخوا فيهم حب العلم ، وعامل المدرسون الطلاب وربَّوْهم على أعينهم كما يربي الأب ابنه ، وأحسنوا تهيئتهم لتلقى العلم ، خاصة من وجدوا فيهم الاستعداد والقبول ، فيقبل المدرس على تلميذه بحب وود حتى يأخذه بكلتا يديه ، ويلقى إليه بشغاف قلبه ، ودُرَر عقله وماله [4].

عنيت المدارس الدمشقية – أيضاً – بسلامة أبنائها الطلاب ، ولم يُؤْثَر إلا أحداث مؤسفة قليلة كسقوط طالب بالمدرسة الشامية البرانية من المَحْمل (قبة فوق البعير) بدرب الحجاز أثناء التوجه لأداء الحج فيما يبدو ، فسقط ميتاً [5]، وآخر سقط من سطح المدرسة نفسها فمات[6] ، وطالب ثالث شافعى يعرف ب(الصواف) كان يسكن المدرسة نفسها ، مات موتة طبيعية فى سكنه بالمدرسة[7]، ورابع لحق به – أيضاً – كان من مدينة (حماة) ، ويتلقى العلم بدمشق [8].

- **إجازات تخريج الطلاب :**

---

(١) مثل : شرب السكر عند افتتاح الدراسة والاحتفال بمدرس جديد (ابن طوق : التعليق ج٣ ص١٠٩٥).

(٢) مثل : توفير الكراسات للكتابة (المصدر السابق : ج١ ، ص٤٠٩ ، سنة٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) ، وتوفير خزانة للكتب كما فى المدرسة العادلية (المقريزى : المقفى ، ج١ ، ص٤٦٧) ، وتوفير مكتبة بالمدرسة الضيائية بالصالحية (ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٣٨-١٣٩).

(٣) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١٠ ، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٤) السبكى : طبقات الشافعية الكبرى ، ج١٠ ، ص٢٩٩-٣٠٠.

(٥) وهو الأخ الأكبر لابن كثير (ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٣٣).

(٦) ابن طوق : التعليق ، ج٢ ، ص٧٢٤- سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م.

(٧) ابن طوق : التعليق ، ج٢ ، ص٦٧٦.

(٨) التميمى : الطبقات السنية ، ج١ ، ص٣٢٥-٣٢٦.

بعد إتمام الطلاب دراستهم بمدارس دمشق ، يمنحهم مدرسوهم شهادة شفوية ومكتوبة[١]، تثبت اجتيازهم مرحلة التعلم ، ووصولهم إلى مرحلة التخرج ، فيؤذن لهم بالتدريس والإفتاء[٢]، أو بالإفتاء فقط[٣].

من خريجى مدارس دمشق وغيرها : تاج الدين السبكى (ت٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، وحصل على إجازات بالإفتاء والتدريس ، ودرّس فى مدارس كبيرة بدمشق[٤]، وابن كثير الذى تخرج على علماء كبار ، مثل : صلاح الدين العلائى (ت٧٦١هـ/ ١٣٥٩م) بدار الحديث الحمصية[٥]، ومحمد بن عمر الدمشقى الذى درس فى الشامية البرانية ، وكان ابن كثير والشهاب الأذرعى وغيرهما من الطبقة الأولى ممن حضروا دروسه [٦]، إلى جانب الكثير من القضاة العلماء الذين تخرجوا على يدى جلال الدين الرازى الحنفى (ت٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م).

---

(١) ابن حجر : رفع الإصر ، ج١ ، ص٨٩ ، ٩١.

(٢) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٣ ، ص٤١٢.

(٣) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٧-٣٨ .

(٤) المصدر السابق : ج١ ، ص٥٩- ٦٠.

(٥) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص٢٢٨.

(٦) المقريزى : المقفى ، ج١ ، ص٣٥٦-٣٥٧.

المبحث الثالث و الأخير
(عوامل ازدهار التعليم في مدارس دمشق)

أولاً- توفير الموارد المالية :

و هو يأتي على رأس العوامل الدافعة والمحققة للازدهار؛ لأن المال عصب الحياة كما هو معلوم. و من أبرز الموارد التي ينفق منها على المدارس – بغَضّ النظر عن إنفاق الدولة – ما يلي :

١- التبرعات : مثل : تلك التي فرقها أحد المماليك على المدارس ، و من بها على مختلف وظائفهم، محدداً نصيب كل منهم ، و ذلك سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م [١].

٢- أموال الأوقاف[٢]: تعد المصدر الرئيس الذي يتم الإتفاق من ريعه على المؤسسات التعليمية و الخيرية (و على رأسها : المدارس) ، فتتكفل بمصروفاتها و احتياجاتها المختلفة ؛ حتى تؤدي دورها على الوجه الأمثل ، و يراعى في ذلك – اتباع شروط الواقف على سبيل الوجوب؛ تنفيذاً لما أوصى به ، كما قال ابن تيمية[٣].

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٣٤٢.

(٢) الوقف : الحبس. وقفت الأرض على المساكين : حبستُها عليهم . (ابن منظور : لسان العرب ، مادة : و . ق . ف ، ج٦ ، ص٤٨٩٨.

الوقف عند الفقهاء : حبس العين على مِلْك الواقف ، أو على ملك الله (تعالى) ، والواقف هو صاحب هذا المِلْك (من عقار ، أو أرض ، أو غيرهما) ، يأمر بحبس العين على ملكه ، وإما على مِلْك الله (تعالى). والموقوف : العَين المحبوسة . (إبراهيم مصطفى وآخرون : المعجم الوسيط ، مادة : و . ق . ف) ، ج٢ ، ص١٠٩٤) . ومعنى هذا أن مالك الشيء يوصى بتخصيصه كله ، أو جزء منه للمحتاجين ، فلا يُتصرف فيه ببيع ، وتتم إدارته وما يأتى من ربح ، ينفق على المحتاجين ، أو المساجد ، أو المدارس ، مما حدده الواقف . فالوقف – إذن – يختلف عن التملك كما جاء فى (التميمى : الطبقات السنية ، ج٣ ، ص٢٢٣).

الأوقاف فى دمشق كثيرة ومتنوعة؛ مما يدل على كرم أهلها(راجع مظاهر كرمهم فى رحلة ابن بطوطة ، ص١٢٢- ١٢٣). ومن كثرة أوقاف دمشق كانت توزع– أحياناً– خارجها . (ابن طوق : التعليق ، ج١ ، ص١١٢ – ٨٨٦ه/ ١٤٨١م. فمثلاً : من أوقاف الشام ما كان ينفق فى مصر (أقيم فندق بجانب المدرسة المسرورية فى مصر- من ثمن ضيعة بالشام). (المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٣٧٨).

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ق٢ ، ص٨٣٥ ، سنة٨٩٧ه/ ١٤٩١م.

- **من أوقاف مدارس دمشق ما يلي :**

أ- أوقاف المدرسة الشامية البرانية[١].

ب- قائمة طويلة من أوقاف دار القرآن و الحديث للأمير تنكز شهرياً ، و مقدار ما ينفق على ما فيها[٢].

ج- وقف المدرسة الفارسية ، كما أخبر به بوابها (جمال الدين العدوي) [٣].

د- وقف المدرسة المقدمية البرانية[٤].

ه- ما عُرف من أوقاف المدرسة الجوزية[٥].

و- كتب موقوفة على دار الحديث الأشرفية ملك صفي الدين الهندي[٦]، ووقف ابن قيم الجوزية كتباً شتى حساناً على المدرسة الصدرية الحنبلية[٧] ، و وقف أبو القاسم القاسم عبد الوهاب بن عَبد الواحد الحنبلي الدمشقي (ت٥٣٦هـ/ ١١٤١م)على المدرسة الحنبلية[٨]و كذلك وقف شعيب التركماني(ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)تاجر الكتب الكتب على المدرسة الحنبلية أيضا[٩].

ز- وقف المدرسة الضيائية الحنبلية[١٠].

ح- مدرس قاضٍ بالمدرسة المنجائية الحنبلية وقف ماله على تزويج فقراء الحنابلة[١١].

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٥٤.

(٢) المصدر السابق : ج١ ، ص١٢٤-١٢٧.

(٣) السابق : ج١ ، ص٤٢٨-٤٢٩

(٤) السابق : ج١ ، ص٦٠٠.

(٥) السابق : ج٢ ، ص٦٢.

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤، ص٧٧ (سنة٧١٥ه/ ١٣١٥م).

(٧) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص٩٠-٩١.

(٨) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٩ ، ص٣٠٧.

(٩) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج١٩ ، ص٣٠٧.

(١٠) المصدر السابق : ج٢ ، ص١٥٨.

(١١) المصدر السابق : ج٢ ، ص١٥٨.

ط- وقف على المدرسة الشبلية الحنفية[1].

ي- وقف سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م،منه ما يخص المدرسة الدخوارية في الطب[2].

ك- وقف المدرسة الركنية بالصالحية[3].

ل- وقف المدرسة الضيائية بالصالحية[4].

- **مظاهر الاهتمام بالأوقاف :**

أ- تعيين ناظر للوقف ، يدير شئونه ، و يشرف عليه . ومن هؤلاء النظار : ناظر أوقاف المدرسة الشامية الجوانية و غيرها كثير (خليل بن عبد الوهاب الأنصاري المتوفى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، و هو الذي عمر المدرستين الشاميتين بعد احتراقهما في فتنة تيمورلنك (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) [5]. و ناظر وقف المدرسة التقوية (بدر الدين التقوى ت ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) [6]، و ناظر أوقاف دمشقي مالكي المذهب يعرف ب(شيخ الكتّاب ، ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) [7].

ب- التأكد من وقفية الأراضي و غيرها ، و أنها ليست مملوكة لأحد ، و إلا أُلغي وقفها[8].

ج- الحفاظ على الأوقاف ، و الإصرار على بقائها ، خاصة في المدارس[9]؛لأن المدرسة إذا سُرقت أوقافها، تدهورت في أي مكان[10]؛ و لذلك كان السلطان المؤيد

---

(١) القرشى : الجواهر المضية ، ج٣ ، ص٥٣٢.

(٢) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص١٣٣.

(٣) ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص٩٥-٩٦.

(٤) ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج١ ، ص١٣٢.

(٥) السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٩٩-٢٠٠.

(٦) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٢٢٤.

(٧) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص٢٣.

(٨) الصفدى:الوافى بالوفيات،ج٢٢،ص٤٤٤(لم تثبت وقفية أرض،فبيعت،وصارت داراً لبعض الأمراء).

(٩) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٧٨-١٧٩ ، سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م.

(١٠) المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٣٨٣.

شيخ (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م) يدرك أهمية توضيح هذا الأمر لرعيته ، ويعلن محافظته على الأوقاف ؛ ليحوز ثقتهم ، و أكد أنه لم يعتد على أوقاف دمشق العامرة[١]، لكن المقريزي – على كل حال- كان له رأي سئ فيه[٢].

ثانياً- الاهتمام بتعمير المدارس:

اهتم المسلمون ببناء المدارس الجديدة ، و تعمير ما خرب منهـــا ، وصيانة وترميم ما يحتاج إلى ترميم ، و على ذلك مجموعة من الشواهد التاريخية المعمارية على النحو الآتي :

- إعادة بناء و تعمير ما خُرِّب أو دُمِّر ، أو أُحرق ، لاسيما في النكبات ، مثل : اجتياح تيمورلنك لدمشق.و مما أُحرق و أعيد بناؤه : دار الحديث الأشرفية[٣].

- ترميم و تكملة بناء المدرسة الدولعية ، حيث كانت دون سقف إلا ما كان من أمر الإيوان ، و ذلك العمل تم عند تولي محيى الدين القبابي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) شئون تدريسها[٤].

- إعادة تعمير العادلية الكبرى بعد وقعة غازان التتري على الشام (كانت سنة ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م) [٥]. و يبدو أنها خربت بعد ذلك مدة طويلة ،أو تأخر تعميرها بعد بعد هجوم تيمورلنك (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، فبدأت عملهـــا مـــن جديـــد سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م[٦].

- ورد كتاب من السلطان المملوكي إلى دمشق ، يذكر وصول شكوى إليه ضد القاضي المالكي التاذلي؛ بسبب تعميره المدرسة النورية الحنفية بعد أن هدم بناءها

---

(١) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ق١ ، ص١٤٠.

(٢) المصدر السابق : ج٤ ، ق١ ، ص٥٥٠-٥٥١.

(٣) المقريزى : المقفى ، ج٢ ، ص١٦.

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ٢٥٠-٢٥٢.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٣٣ ، سنة٧٠٤ه/ ١٣٠٤م.

(٦) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٣٦٧.

الأول، و قيل : إنها كانت في حالة جيدة لا تحتاج إلى هدمها ، فردّ القاضي على الشكوى في محضر شهد فيه كبراء المالكية بتصويب ما فعله[1].

– سقوط منارة المدرسة الشامية البرانية بعد تكامل بنائها ، فسقط جميع ما جُدِّد، و هو ما فوق الأُسّ(الأساس) من الحجارة[2]، وكانت احترقت من قبل ، و توقفت الجمعة بها مدة سنة ، و ثمانية شهور[3].

– تعمير تنكز نائب الشام (ت٧٤١هـ/ ١٣٤٠م) للمدارس و المساجد جميعاً ، و أزال الفواحش، و منع الريع ، حتى اكتملت عمارتها[4].

ثمت مدارس جديدة أنشئت ، منها : دار حسنة بالعُقيبة الصغيرة (منطقة بدمشق) كانت للأمير عز الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن أحمد بن القواس (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م) ، فلما حضرته الوفاة ، أوصى بتحويلها إلى مدرسة ، و وقف عليها أوقافاً ، و جعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الشافعي[5]. و كذلك وقف وقف ناصر الدين بن براق داره ، و جعلها مدرسة بدمشق ، و قرّر فيها شمس الدين الحيني إماماً[6].

في أول سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م، تم تجديد و إكمال دار قرآن قبلي تربة امرأة الأمير تنكز في محلة باب الخواصين ، و بعدها بشهور في يوم الأحد الخامس من جمادى الأولى فتحت المدرسة الطيبانية التي كانت داراً للأمير سيف الدين طيبان بالقرب من المدرسة الشامية الجوانية[7].

---

(١) ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص١٠٤ ، سنة٧٨٥ه/ ١٣٨٣م.

(٢) المصدر السابق : ج٣ ، ص٤٦٦ ، سنة٧٩٥ه/ ١٣٩٢م.

(٣) السابق : ج٣ ، ص٤٦١.

(٤) المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ق٢ ، ص٥٠٩–٥١٠.

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص١٧٢.

(٦) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٠٧ ، ٧٧٧ه/ ١٣٧٥م.

(٧) ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص٢٤٥ .

وهكذا لوحظ اهتمام المماليك بإقامة المدارس في مختلف أنحاء دولتهم الواسعة في مصر و الشام والحجاز[1]، و كان تركيزنا في بحثنا على مدارس دمشق.

ثالثاً- الرقابة و التفتيش و التقييم:

هذه أمور لابد منها ؛ لضمان النجاح في أي عمل ، فالمتابعة و الرقابة و التفتيش ، و تقييم الأداء على رأس الأولويات ، التي أدت إلى ازدهار العملية التعليمية. تذكر بعض الروايات وجود بعض من الأمراء المماليك الذين يأتون في المرتبة التالية بعد الأمراء المقدمين ، و هؤلاء من حاشية السلطان المقربين يقومون بالمرور على المدارس ، و لعلهم يراجعون سجلاتها و شئونها المالية ، فيقومون بالتفتيش على نظار المدارس أكثر من يوم ، و لعلهم كانوا يحصلون على مقابل هذه الرقابة من أموال الأوقاف ، و ربما هذا كان مثار اعتراض من القائمين على شئون المدارس[2]. و يذكر ابن طولون الدمشقي في عبارة واضحة في أحداث سنة ٨٩٩هـ/ ١٤٩٠م في شهر ربيع الآخر ، فقال : صدر مرسوم شريف للحاجب بالكشف (التفتيش و الرقابة المالية و الإدارية) بالمدارس ، فشرع يكشف[3]. و لعل مما يُكشف عنه في هذه الزيارات التحقق من تنفيذ تنفيذ شروط الواقفين في المدارس المختلفة.

و قد رأينا من قبل أن شروط الواقف متنوعة ، بعضها جيد يجب مراعاته ، و البعض يصعب تنفيذه ، و أحياناً يتم تجاهله. و لعل هؤلاء نظروا فيما اشترطه الواقفون ، مثل : اشتراط وجود مسجد بالمدرسة الصابونية به خطيب يخطب الجمعة ،

---

(١) د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ، ص٣٤٠.

(٢) ابن طوق : التعليق ، ج٢ ، ص٧١٦ ، سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٦م ، ج٣ ، ص١١٦٤ ،سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م.

(٣) مفاكهة الخلان : ص١١٤. ثمة نص يبين (سلطة قاضى القضاة على ناظر المدرسة الأمينية ، ولعله يمثل جهة رقابية سابقة على رقابة هؤلاء المفتشين ؛ حيث منع قاضى القضاة الناظر من صرف شىء من ريع الوقف لابن الحسبانى إلا بسند شرعى . (راجع كتاب وقف هذه المدرسة ، وصلته بذلك فى : ابن قاضى شهبة : تاريخه ، ج٣ ، ص٨٣).

على أن يكون شافعي المذهب ؛ تمشياً مع المعتاد في خطيب الجامع الأموي[1]. و في هذا حرص على بث الروح الديني في الطلاب ، و استقامة سلوكهم. و اشترط الواقف في الأتابكية الشافعية أن يكون بها مقرئ يحفظ القرآن ، و يدرس القراءات[2]. و هذا مهم ؛ حتى يتلقى الطلاب عليه القرآن صحيحاً في تلاوته. و كذلك واقف الشامية البرانية اشترط أن يكتفي المدرس بها ، و لا يدرس في غيرها من المدارس[3]. و لا ريب أن هذا مفيد في تفرغ المدرس و حسن تركيزه مع الطلاب ، و لعلهم عوضوه بمقابل مادي مكافئ لعمله في عدة مدارس أخر. و كذلك اشترط واقف المدرسة الركنية أن يسكن المدرس بها[4]. و هذا أمر محمود ؛ ليلازم الطلاب علميّاً، و خلقيّاً ، و تربويّاً. و في المدرسة القصاعية اشتُرط أن يكون المدرس حنفي المذهب ، بل أعلم فقهاء الحنفية[5]. فلعل هذا يهدف إلى تخريج طلاب على أعلى مستوى فقهي في مدرسة متخصصة في الفقه الحنفي ، فيعرفون أصوله و فروعه.

اشترط واقف المدرسة المعينية ألا يأخذ المدرس شيئاً لأحد ، ولا راتباً[6]. ولا يقبل بهذا الشرط إلا رجل ورع تقى ، يقدم العلم لأجل الله ، مستغنٍ عن راتب المدرسة ، فقد يكون له مصدر دخل آخر .

وفى وثيقة وقف مملوكية : وقف العمادى إسماعيل بن خليفة على نفسه وعلى أولاده الموجودين ، ومن بعدهم على أنسالهم وأعقابهم ، وبعد الانقراض على الحرمين الشريفين . وأرخ الوقف بسنة٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م[7].

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص١٣-١٥ .

(٢) المصدر السابق : ج١ ، ص١٣٧ .

(٣) السابق : ج١ ، ص٢٧٩.

(٤) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٥٢٠.

(٥) السابق : ج١ ، ص٥٦٥.

(٦) السابق: جـ١ ، ص٥٩١.

(٧) وقف مدارس مملوكية في دمشق ، الدفتر رقم (٣٩٣)- إستانبول ، محفوظ في دار الوثائق القومية بدمشق ، ص١٣١ .

غير أن هناك سلبيات تتعلق بالوقف ، أثرت تأثيراً سيئاً فى المدارس ، ولعلها خارجة عن إرادة القائمين على الرقابة والتفتيش ، أو لعدم قيامهم بواجبهم على النحو الأمثل ، ومن أمثلة ذلك :

- محمد بن أحمد بن محمود النابلسى ثم الصالحى (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) : لم يكن مرضياً عنه فى الشهادة ولا فى القضاء ، وهو أول من أفسد أوقاف دمشق،وباع أكثرها بالطرق الواهية [١].

- إبراهيم بن محمد بن مفلح (المعروف ببرهان الدين بن مفلح الدمشقى ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) : لم يكن مرضْيًا عنه فى الشهادة و القضاء ، وباع كثيراً من الأوقاف بدمشق ، وقلما وقع منها شىء صحيح فى الباطن ، وفتح على الناس بابًا من الشر لا يُسَدّ أبداً ، ونُسبت إليه القبائح فى أخذ أموال الناس ، وإيقاع الأذى بهم [٢].

- تهديد لاجين التركى بإبطال الأوقاف على المساجد والمدارس ، وإحراق الكتب ، وعقاب الفقهاء ، لكنه مات قبل ذلك [٣].

- القيام بمصادرة الأموال وفرض الضرائب على قرى غوطة دمشق كلها سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م [٤]، ومصادرات أخرى ، والاستيلاء على أموال الأوقاف بدمشق سنة٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م [٥].

والغريب أن العلماء انقسموا على أنفسهم أمام السلطان برقوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٩م)، ولم يقفوا موقفاً واحداً مدافعاً عن الأوقاف [٦]، ومحافظاً عليها ، ومبيناً خطورة الاعتداء عليها ، وما يعود بالضرر الشديد على العلم والعلماء والطلاب من جرّاء ذلك. وقد نتج عن ذلك المزيد من الاعتداء على أموال أوقاف

---

(١) السخاوي : الضوء اللامع ، جـ٧، ص١٠٧ (رقم٢٣٢).

(٢) النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٤٧.

(٣) المقريزي : السلوك ، جـ٣ ، ق٣،ص١٠٩٠(٨٠٤ه/ ١٤٠١م).

(٤) المصدر السابق : جـ٣ ، ق٣، ص١١٥٢،١١٤٥،و غيرها.

(٥) السابق : جـ٤ ، ق١ ، ص٤٠.

(٦) ابن إياس : بدائع الزهور ، جـ١ ، ق١ ، ص٢٣٦-٢٣٧.

المدارس ، وفى هذا عدوان صريح سافر على جميع المشتغلين بالمدارس والمستفيدين منها من طلاب ومدرسين وعمال وإداريين ، وخسارة جسيمة للمجتمع الدمشقى ، ففى سنة٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م ، طلبت السلطة الحاكمة أموالاً للعسكر ، وفرضوا على القضاة مبلغ خمسين ألف درهم ، فاضطروا إلى جمعها من أوقاف المدارس ، فأخذوا من أوقاف المدارس الشافعية خمسة وعشرين ألفاً، ومن الحنفية سبعة عشر ألفاً،ومن الحنابلة خمسة آلاف،ومن المالكية ثلاثة آلاف [١].

ثمة ظاهرة سلبية خطيرة أخرى ، تتمثل فى عدم الالتزام – أحياناً – بشروط الواقف ، مثل : التغاضى عن عدم علم عمر بن عثمان (ت٧٨٣هـ/ ١٣٨١م) بالحديث، والسماح له بولاية دار الحديث الأشرفية ، منتزعاً إياها من الحافظ ابن كثير مع اشتراط الواقف أن يليها عالم من أعلم أهل الحديث بدمشق ؛ لذلك كرهه الطلاب ، وأحصوا أخطاءه كقوله : الجُهْبَذ (على سبيل الخطأ) [٢].

تمت مجاملة مدرس غير مؤهل للتدريس فى المدرسة الحنبلية ، خاصة أن من شروط الواقف أن يكون عالماً بالمذهب والأصلين (أصول الدين ، وأصول الفقه) ، كما أن هذا المدرس (التقىّ عبد الله بن شمس الدين) انتزع تدريسها من ابن رجب الحنبلى العالم الفقير ، بينما التقىّ ليس مؤهلاً ، ومستغنياً عن الوظيفة ، علاوة على أن التقىّ ومن معه أتوا بمستند غير صحيح زعموا أنه موقَّع من القاضى ابن جماعة بتولية التقىّ التدريس[٣]، وأحياناً لا يعتد بشرط الواقف ؛ لصعوبته ، فيلى التدريس من لا يتوفر الشرط فيه[٤]، وقد لا يحترم أبناء الواقف شروط والدهم ، فيتملكون المدرسة من مدرسها ، وتتعطل الدراسة ، كما حدث فى المدرسة المقدمية البرانية[٥].

---

(١) ابن قاضي شهبة : تاريخه ، جـ٣ ،ص٣٧٥.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر ، جـ١ ، ص٢٤٩. الصواب : الجِهْبِذ، و الجمع : الجَهابِذة. (إبراهيم مصطفى و آخرون ، المعجم الوسيط ، جـ.ه.ب.ذ،جـ١ ،ص١٤٧).

(٣) ابن قاضي شهبة: تاريخه ، جـ٣،ص٢٧١ (سنة٧٩١ه/ ١٣٨٨م).

(٤) مثل : شرف الدين موسى بن شهاب الدين الرَّمْثاوي الذي درّس بمدرسة أم الصالح مكان قاضي القضاة نظير دفع ما يزيد على ستة آلاف درهم. ويعلق الشيخ شهاب الدين بن حجى بقوله : سار فى هذا الزمان يتطاول إلى التدريس كل أحد ، و يُباع و يُشترَى كما يُشترى المتاع، و أُلغيت شروط الواقفين! (المصدر السابق : جـ٣ ، ص٦٢١-٦٢٢(سنة ٧٩٩ه/ ١٣٨٨م).

(٥) النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٦٠٠.

وأخيراً ، إذا كانت النماذج السلبية متعددة على نحو ما تقدم ، فلم تكن الأوضاع مظلمة حالكة السواد ، فقد كان هناك من المدرسين من يتقون الله فى شروط الواقفين ، ولا يتورعون عن ترك التدريس إذا علموا عدم توفر شرط الواقف فيهم[1].

رابعاً وأخيراً – انخراط المجتمع فى طلب العلم :

امتد النشاط العلمى بمدينة دمشق إلى مختلف طوائف المجتمع ؛ فالأطفال – كما رأينا – تعلموا فى المكاتب والمساجد ، ثم ينتقلون للتعلم تعلما نظاميا فى المدارس ، ويتخرجون قضاة وفقهاء ومفتين ومدرسين وخطباء ووعاظًا ، ينشرون علمهم بين الناس . والمساجد والخانقاوات بها طلاب العلم من العوام والخواص، وحلقات التدريس منتشرة على أوسع نطاق ، والعلماء كثيرون[2]، والناس تتنقل من حلقة دراسية لأخرى،والصوفية فى دورهم يتلقون العلم أيضاً ، والاهتمام بالعلم يشمل الجميع ذكوراً وإناثًا[3] (طالبات للعلم ومعلمات).

---

(١) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٢١ ، ص٨٣-٨٥(نجم الدين القَحْفازي النحوي الحنفي اعتذر بعد مُديدة عن تدريس الركنية ، و ترك راتبه تورعاً ، ت ٧٤٤ه/ ١٣٤٣م).

(٢) ازدهر العلم بدمشق وكثر علماؤها بعد أن رحل إليها علماء القدس بعد المآسى التى تعرضت له المدينة من أيام الحروب الصليبية ، وتوجه آل قدامة المقدسيون إلى الشام ، وأقاموا فى صالحية دمشق ، ثم ما عانته القدس – أيضاً فى العصر الأيوبى لمكانتها الدينية – من الاضطرابات السياسية ، حيث صارت هدفاً لمساومة بعض المتصارعين على السلطة . وهكذا فإن الأوضاع السياسية التى ألَمَّتْ بالقدس ، أدت إلى تراجع واضمحلال دورها العلمى والثقافى ، وفى المقابل ازدهرت الحركة العلمية والثقافية بدمشق ؛ لاستقرار أوضاعها السياسية والأمنية . (د. يوسف إبراهيم الزاملى : الأوضاع السياسية فى بيت المقدس وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية بدمشق فى فترة الحروب الصليبية) بحث نُشر فى مجلة حصاد (رقم٩) ، التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، دار عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية سنة ٢٠٠١م ، ص٣٨٥، ٣٩١-٣٩٢).

(٣) يذكر د. سعيد عاشور أن المكاتب الخاصة بتعليم الأطفال فى مصر اختصت بالبنين دون البنات ؛ لأنه لم يصادفه فى وثائق عصر المماليك أو مراجعه ما يشير إلى وجود مكاتب لتعليم البنات . (المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٦٢م ، ص١٥٢-١٥٣ . ومعنى ما تقدم أن البنات فى مصر لم يتح لهن التعلم فى المدارس ، حيث لم يلتحقن بالمرحلة الأولية (المكاتب) . والحق أن دمشق يحتمل أن يكون بها بعض المدارس لتعليم البنات ، نعرضها بعد قليل .

لعل المرأة الدمشقية كان لها نصيب من التعليم ، وهو ما نلاحظه فى استعراض أسماء وتراجم عدد من هؤلاء ، مثل: عائشة بنت محمد الحرانية (ت٧٣٦هـ/ ١٢٣٥م) ، وهى أخت محاسن بن عبد الملك التنوخى (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٤م) الرجل الصالح الفقيه الحنبلى الزاهد صاحب (المدرسة الضيائية المحاسنية) ، وهى من مدارس الحنابلة بدمشق ، وجعلها موقوفة على رئيس الحنابلة الذى يقوم بالتدريس بها . وعائشة المذكورة حضرت مجالس العلم والحديث ، وتفردت بالرواية[١].

وهناك المحدثة المشهورة (زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي المعروفة بـ(زينب بنت الكمال ٦٤٦-٧٤٠هـ/ ١٢٤٨-١٣٣٩م) ، وكانت على المذهب الحنبلى ، وتفردت بالكثير من الإجازات العلمية لرواية الحديث النبوى الشريف ، ولم تترك شيخًا ولا عالمًا من علماء عصرها ، إلا طلبت علمه ، ورحلت إلى بغداد والإسكندرية والقاهرة وغيرها ، وكانت مصابة بالرمد ، وانقطعت للعلم ، ولم تتزوج[٢].

وعائشة بنت محمد بن عبد الهادى المقدسي الصالحي (٧٢٣-٨١٦هـ/ ١٣٢٣-١٤١٣م) ، وتلقب بـ(مسندة الدنيا) ، وتفردت عن جُلّ شيوخها بالسماع والإجازة فى الآفاق ، وروت الكثير وأخذ عنها الأئمة لاسيما الرحالة و أكثروا فى الرواية عنها ،

---

(١) النعيمى : الدارس ، ج٢ ، ص٩٩-١٠٠.

(٢) راجع : ابن حجر : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، ج٢ ، ص١١٧-١١٨ (ترجمة رقم ١٧٤٣).

Asma Sayeed : Women and Hadith Transmission Two Case Studies From Mamluk Damascus , Studia Islamica NO. 95, Maisonneuve & Larose , 2002 , PP .75-78.

وكانت سهلة فى إسماعها طلاب العلم ، لَيِّنة الجانب[1]، وسمع منها أبو بكر بن أحمد ابن سليمان الدمشقى الشافعى جُلَّ صحيح البخارى سنة٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[2]. ويلاحظ أن بيت عائشة بيت علم وفقه ورواية ، فوالدها محمد بن أحمد ابن عبد الهادى المقدسى الصالحى الفقيه المقرئ المحدث(ت٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م)،وهو فى سن الأربعين[3]،وأختها فاطمة بنت محمد بن عبد الهادى من المحدثات أيضاً (ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)[4].

وثمة محدثات شهيرات من بيوت علم ، مثل: ست الوزراء بنت القاضى شمس الدين الدمشقى الحنبلى (ت٧١٧هـ/ ١٣١٧م) ، وكانت قد سمعت صحيح البخارى ومسند الإمام الشافعى[5]، وأسماء بنت عماد الدين الدمشقية (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)[6]، وفاطمة بنت عباس البغدادية العالمة الواعظة ، التى انصلح بها نساء دمشق ، ثم مصر ، وكان لها وقع فى النفوس . توفيت سنة٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م[7]، والشيخة فاطمة بنت المنجا شيخة الإمام ابن حجر ، التى

---

(١) راجع : السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٢ ، ص٨١ ،

Asma Sayeed : Women and Hadith Transmission Two Case Studies From Mamluk Damascus , PP. 82-84.

ويلاحظ أنها كانت شيخة شيخ الإمام السيوطى (قاضى القضاة عز الدين أحمد بن إبراهيم بن نصر الله العسقلانى ت٨٧٦هـ/ ١٤٧١م). (السيوطى : نظم العقيان ، ص٣١-٣٣ رقم ١٧ ، و د. مصطفى الشكعة : جلال الدين السيوطى : مسيرته العلمية ومباحثه اللغوية ، الناشر : مصطفى الحلبى بالقاهرة ، ١٩٨١م ، ص٢٨).

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١١ ، ص١٩.

(٣) ابن طولون الدمشقى : القلائد الجوهرية ، ج٢ ، ص٤٣٢-٤٣٥.

(٤) المصدر السابق : ج٢ ، ص٣٩٩-٤٠٠.

(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٨٢-٣٨٣.

(٦) الصفدى : الوافى بالوفيات ، ج٩ ، ص٥٨.

(٧) السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٩٦٧م ، ج١ ، ص٣٩٠.

أكثر الرواة فى الأخذ عنها ، وكانت خاتمة المسندين بدمشق . توفيت سنة٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م[١]، و أسماء بنت أحمد بن إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى : من بيت علم ورواية ، لقيها السخاوى بدمشق ، وأجازت له . توفيت بعد ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م[٢].

أين تعلمت المرأة ؟ وفى أى الأماكن علَّمتْ؟

أما عن السؤال الأول ، فمما استعرضناه سابقاً ، يمكن أن نستنتج أن المرأة كانت تتعلم فى بيتها عن طريق محارمها (أبيها – أخيها) ، وقد يُؤْتَى بالمدرس ليعلمها فى بيت أهلها[٣] ، وقد تذهب إلى بيت المدرسة كما سنرى ، لاسيما أننا استعرضنا المدارس الدمشقية ، فلم نجد بها ما يقطع بمجىء الطالبات للتعلم فى المدارس (وهذا ينطبق على مصر والشام) ، وفى الوقت نفسه فإن المبرِّزات من النساء رحلن فى طلب العلم ، وأتوقع أن يكون سفرهن مع ذى محرم ، تتلقى على الشيخ فى وجوده .

أما عن السؤال الآخر ، فلقد رأينا نماذج عديدة من العالمات المحدثات يُتوقع أن يكنّ معلمات ، لكن قبل الدخول فى غمار الإجابة نشير- باختصار- إلى أركان السماع[٤]، أى : عناصر الرواية الحديثية ، كما هو مدون على هوامش الكتب المخطوطة، المخطوطة، التى تمت روايتها ، وهى :

- المُسْمِع : الشيخ الذى يقرأ عليه الطلاب .
- القارئ : اسم الطالب أو الطلاب الذين قرأوا الكتاب على الشيخ ، وهؤلاء هم الحضور .

---

(١) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج١ ، ص١٤٢.

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٢ ، ص٦ (رقم٢٨).

(٣) د. عبد الغنى محمود عبد العاطى : التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، ص٢٣٥ ، ٢٥١.

(٤) ستيفن ليدر، وغيره : معجم السماعات الدمشقية المنتخَبة من سنة٥٥٠-٧٥٠هـ/ ١١٥٥-١٣٤٩م ، ص١٠ (المقدمة) ، وراجع ما ذكره عن مجالس إملاء الحديث – د. محمد كمال الدين عز الدين : مجالس الإملاء فى ظل حكم سلاطين المماليك ، بحث نُشر فى كتاب ندوة (تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، ص٣٩١-٣٩٥.

- الكاتب : الذى يكتب أسماء الحضور ، وهو شاهد على صحة الرواية.
- مكان السماع وزمانه: المكان الذى انعقد فيه درس العلم ، وتوقيته .

من خلال تتبع البيانات السابقة المدونة على هوامش الكتب المخطوطة فى (المكتبة الظاهرية) بدمشق خلال النصف الأول من القرن الثامن الهجرى (إلى سنة٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م) ، تبين ما يلى :

أ- هناك نساء درّسن العلم فى بيوتهن ، مثل : أم عبد الله فاطمة بنت نصر الله بن محمد بن عياش ، حيث درَّستْ فى منزلها ببستان العامد جوار مئذنة ابن عبد الحق ظاهر دمشق ، وعدد الحضور ثلاثة لا نعرف أسماءهم ، وذلك يوم السبت آخر ربيع الآخر سنة٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م[١].

وكذلك أم محمد سارة بنت عمر بن أحمد المقدسى درستْ فى بيتها جوار الجامع المظفرى بسفح جبل قاسيون ، وكان القارىء والكاتب محمد بن الحافظ العلاّمة المزّى، وعدد الحضور ثلاثة لا نعرف أسماءهم وذلك يوم الجمعة التاسع من صفر سَنة٧١٥هـ/ ١٣١٥م[٢].ومعنى ما تقدم احتمال أن يكون بعض الحضور طالبات ، لاسيما أن الدرس فى بيت المدرِّسة .

ب- هناك بعض المدّرسات درّسن فى دار الحديث الضيائية بسفح قاسيون على النحو الآتى :

مدرسون رجال ونساء : عددهم خمسة (ثلاثة من الرجال ، واثنتان من النساء بينهم صلة قرابة ، وهم مقدسيون) ، والمرأتان المدرستان هما : زينب بنت الكمال ، وحبيبة بنت عبد الرحمن . وكان عدد الحضور تسعة وثلاثين ، والسماع مؤرخ سنة٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م[٣]، ولا ندرى إن كان من بينهم طالبات أو لا .

---

(١) ستيفن ليدر وغيره : معجم السماعات الدمشقية ، ص٢٥ (درَّستْ من كتاب جُمع فيه أربعون حديثاً لعبد الخالق بن زاهر بن طاهر الشماعى ت٥٤٩ه/ ١١٥٤م).

(٢) المرجع السابق : ص٢٧ . وموضوع الدرس : قراءة فى شرح مذاهب أهل السنّة لأبى جعفر عمر بن أحمد بن شاهين (ت٣٨٥ه/ ٩٩٥م).

(٣) السابق: ص٣١- ٣٢.

وفى سماع آخر سنة٧٢٧هـ/ ١٣٢٦م بدار الحديث الضيائية أيضاً ، كان المدرسون خمسة ، منهم ثلاثة نسوة هن : حبيبة بنت عبد الرحمن ، وزينب بنت الكمال ، وأم الحمد فاطمة بنت محمد بن جميل المقدسى ، وعدد الحضور ستة وعشرون طالبًا [١] (دون أن ندرى هل من بينهم طالبات أو لا).

نخلص - فى النهاية – إلى أن هناك مدرسات درسن فى بعض المدارس ، ويحتمل أن يكون من الحضور بعض الطالبات[٢].

---

(١) السابق : ص٥٨ (وكان الدرس عن كتاب الشكر لابن أبى الدنيا ت٢٨١ه/ ٨٩٤م).

(٢) ولعل هذا الاحتمال يتفق مع ما يراه البعض عن وجود نساء كن يذهبن إلى المدارس أحياناً ، ويحضرن حلقات العلم فيها بشكل جماعى ، وبعض المدارس كانت تخصص جزءاً من وقتها للتدريس للفتيات . (د. داود عبد الملك : الإدارة التربوية العربية الإسلامية ، موسوعة الإدارة العربية الإسلامية ، مجلد ٤ ، ج٧ ، ص١٨٠ (لم يذكر الباحث مصدر هذه المعلومات).

خاتمة

١- تنوعت المدارس الدمشقية ، فدرست بعضها القرآن ، وبعضها الحديث ، وبعضها جمعت بين القرآن والحديث ، إضافة إلى المدارس الفقهية على المذاهب المشهورة (الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، والحنبلية) ، إلى جانب مدارس الطب . ويأتى التفسير والنحو وعلوم الأدب والبلاغة والسيرة النبوية داخلة بالتبع فى عدد من المدارس السابقة . وتفوقت المدارس الشافعية على الحنفية ، والحنبلية على المالكية من حيث العدد ، بينما ندرت مدارس الطب ؛ لاعتماد هذا العلم على التدريس العملى بالبيمارستان أكثر من المعلومات النظرية .

٢- تم توفير كافة الإمكانات اللازمة لإنجاح التعليم فى مدارس دمشق ، سواء كان على المستوى البشرى (مدرسين ، ومعيدين ، وعمالاً ، وإداريين) ، أم على مستوى الإمكانات المادية.

٣- تعددت وظائف المدارس بصورة واسعة ، فلم تقف عند حدود التدريس ، وإنما امتدت لتقديم خدمات متعددة ومتنوعة للمجتمع الدمشقى (مكان للقضاء – تحفيظ القرآن للأيتام – ممارسة وظيفة الحسبة – عمل الاحتفالات المختلفة .....إلخ).

٤- تكاملت وتناغمت عناصر العملية التعليمية ، وعلى رأسها : المدرسون ، حيث تم بيان المعايير العامة والخاصة لاختيارهم للعمل فى مدارس دمشق ، ثم الطريقة الرسمية المتبعة فى إجراءات توليتهم ، وكذلك دراسة مظاهر الرعاية المادية والمعنوية والأدبية لهم (مرتبات متباينة قد لا تكفى أحياناً – توفير سكن داخل المدارس) ، ثم المكانة الاجتماعية الطيبة للمدرسين لدى العلماء خاصة ، والمجتمع عامة . وكذلك تناول البحث تعدد المهام التدريسية والدعوية للمدرسين ، وأسباب ذلك ، والوظائف الأخرى التى يضطلع بها المدرسون فى القضاء ، والإفتاء ، والخطابة، والحسبة . وكذلك عرج البحث على بيان ما يطرأ على منصب المدرسين والإداريين من

تغييرات (الإعفاء ، والاستعفاء) ، وأسباب ذلك ، وكذلك حللتُ ظاهرة المشاركة ، والتبادل ، والتناوب فى التدريس ، والسلبيات المترتبة على ذلك.

٥- حدد البحث المقصود بالهيئة المعاونة (معيد-نقيب) ، وحدد وظائف جديدة لها ، إضافة إلى المشهور من عمل المعيد ، وتم تسليط الضوء على أوضاع المعيدين المادية ، والوظائف الإضافية التى يؤدونها ، وعرض نماذج إيجابية ، وأخرى سلبية لبعض الشاغلين لهذه الوظيفة .

٦- تم عرض المقررات الدراسية التى كانت تدرس فى مدارس دمشق ، ونوقشت قضية الانضباط فى المدارس من خلال تحديد مواعيد الدراسة و الإجازات بصورة منظمة (على مستوى الميقات اليومى ، والمواقيت الأسبوعية فى فترة التدريس)، ثم حاولت معرفة مواعيد بداية العام الدراسى ونهايتها ، والعطلات المختلفة وأسبابها، وتبين لى قصر العام الدراسى؛ بسبب تعدد الإجازات والعطلات.

٧- تمت دراسة عدد من طرق التدريس المتبعة فى مدارس دمشق فى زمن البحث، وتراوحت بين طرق تقليدية (التلقين – العرض الغامض المعقد) ، وطرق أخرى ناجحة أثبت البحث وجودها على نطاق واسع ، مثل : دقة الأداء وعمق التناول – سهولة العرض – المناقشة .

٨- تعرض البحث لتقييم المدرسين ، ورصد الإيجابيات العلمية والخلقية والتربوية فى مقابل قلة جمعت بين المساوئ الخلقية والعلمية.

٩- حدد البحث – على وجه التقريب – سن الالتحاق بالمدارس ، ومظاهر العناية بالطلاب ماديا ومعنويا ، وابرز بعض المشكلات العدائيه فى دمشق ، تلك التى انعكست آثارها على طلاب العلم . وأخيراً ، رصدنا مستوى خريجى تلك المدارس ، وإجازات تخريجهم .

١٠- تم رصد عوامل أربعة ساعدت على نهضة التعليم فى دمشق : توفير الموارد المالية ، وأهمها أموال الأوقاف ، وأثبت البحث وجود اهتمام غير قليل بالأوقاف ؛ للحفاظ على أداء الواجبات الملقاة على عاتق المدارس . وكذلك اهتم القائمون على

المدارس بتعميرها وتجديدها ، وبناء مدارس جديدة . وكان للرقابة والمتابعة والتفتيش والتقييم أثره فى نهضة العلم بدمشق . وأخيراً ، أثبت البحث أن المجتمع الدمشقى كله كان مهتما بالعلم فى معاهده الكثيرة المتنوعه (وعلى رأسها: المدارس) ، وأثبت البحث – أيضاً – احتمال تعلم بعض البنات فى المدارس ، وقطع البحث بوجود مدرسات يدرسن العلم (رواية الحديث) فى بيوتهن ، أو فى بعض المدارس– مع بعض المدرسين – لعدد غير قليل من الحضور، يحتمل تقسيمهم لمجموعات فيما يبدو، وقد يُعنَى كل مدرس بمجموعة يدرّس لها ، أو يتناوبون فى الجلسة الواحدة التدريس وإقراء الطلاب.

(قوائم المصادر و المراجع)

القرآن الكريم.

أولاً- الوثائق:

- وقف مدارس مملوكية في دمشق : الدفتر رقم ٣٩٣ – إستانبول، محفوظ بدار الوثائق القومية بدمشق.

ثانياً- المصادر:

- **ابن إياس : محمد بن أحمد بن إياس الحنفي (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م):**
  - بدائع الزهور في وقائع الدهور ،جـ١،ق١،ق٢، تحقيق : محمد مصطفى ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م.
- **ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م):**
  - رحلة ابن بطوطة المسماة:(تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)،شرح و هوامش: طلال حرب،الطبعة الثانية،دار الكتب العلمية-بيروت،١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- **ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م):**
  - حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور. الجزء الأول ، تحقيق: فهيم محمد شلتوت ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامي) ، القاهرة ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **المنهل الصافي و المستوفى بعد الوافي ، جـ٣ ، تحقيق : د.نبيل محمد عبد العزيز ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.**
  - النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة ، جـ٩ ، تحقيق : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٢م.

- **التميمي : تقي الدين بن عبد القادر التميمي الدارى الغَزّي المصري الحنفي (ت١٠٠٥هـ/١٥٩٦م):**
  - الطبقات السنية فى تراجم الحنفية ، ج١ ، ج٣ ، تحقيق : د. عبد الفتاح محمد الحلو ، دار الرفاعى للطباعة والنشر والتوزيع بالرياض ، ١٩٨٣م.
- **ابن حبيب : الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) :**
  - تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه ، ج٢ ، تحقيق : د. محمد محمد أمين، وتقديم : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦م.
- **ابن حجر : أحمد بن على ابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م) :**
  - إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق وتعليق : د. حسن حبشى ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية (لجنة إحياء التراث الإسلامى) بالقاهرة ، ١٩٩٤-١٩٩٨م.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، جـ٣، تصحيح : سالم الكرنكوي ، دار الجيل – بيروت ، ١٩٩٣م.**
  - رفع الإصر عن قضاة مصر ، جـ١ ، جـ٢ ، تحقيق : د.حامد عبد المجيد ، و مراجعة: إبراهيم الإبياري ، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، ١٩٦١م.
- **الحسينى : هداية الله الحسينى (ت١٠١٤هـ/١٦٠٥م):**
  - طبقات الشافعية ، تحقيق وتعليق : عادل نويهض ، الطبعة الثالثة ، دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ١٩٨٢م.

- **ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م):**
  - مقدمة ابن خلدون ، ج٣ ، تحقيق : د. على عبد الواحد وافى ، الطبعة الثالثة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر ، القاهرة ، ١٩٨١م.
- **ابن خَلِّكان : شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م):**
  - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ج٥ ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٦٨م.
- **السبكى : تاج الدين عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى السبكى (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م):**
  - طبقات الشافعية الكبرى ، ج٩ ، ج١٠ ، تحقيق : د. محمود محمد الطناحى ، و د. عبد الفتاح محمد الحلو ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٩٦٤م.
- **السخاوى : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م):**
  - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج١ ، ٣ ، ٥ ، ٦ ، ٩ ، ١٠ ، الناشر : دار الكتاب الإسلامى ، د.ت .
- **السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السيوطى (ت٩١١هـ/١٥٠٥م):**
  - حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة ، ١٩٦٧م .

- نظْم العقْيان فى أعيان الأعيان ، حرره : د. فيليب حتّى ، المطبعة السوريَة الأمريكية – نيويورك، ١٩٢٧م.

- **الشوكانى : محمد بن على الشوكانى (ت١٢٥٠هـ/١٨٣٤م) :**
  - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج٢ ، وضع حواشيه : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٨م.

- **الصَّفَدىّ : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م):**
  - الوافى بالوفيات، الطبعة الثانية ، نشر : فرانز شتاينر – فيسبادن.

ج١ ، تحقيق : هلموت ريتر ، ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م.

ج٣ ، تحقيق : س. ديدرينغ ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

ج٥ ، تحقيق : س. ديدرينغ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ج٦ ، تحقيق : س. ديدرينغ ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ج١٢، تحقيق : د. رمضان عبد التواب ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ج١٧ ، تحقيق : دوروتيا كرافولسكى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ج١٨ ، تحقيق : د. أيمن فؤاد سيد ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ج١٩ ، تحقيق : رضوان السيد ، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ج٢١ ، تحقيق : محمد الحجيرى ، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

- **الصيرفى : على بن داود الجوهرى الصيرفى (ت٩٠٠هـ/١٤٩٤م):**
  - نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان ، ج٢ ، تحقيق : د. حسن حبشى ، مركز تحقيق التراث ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٧١م.

- **ابن طَوْق : شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن طوق الدمشقى الشافعى (ت٩١٥هـ/١٥٠٩م):**
  - التعليق (يوميات شهاب الدين أحمد بن طوق) ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق : جعفر المهاجر ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠٢م ، و ج٣ (المعهد الفرنسى للشرق الأوسط ، ٢٠٠٤م) .
- **ابن طولون الدمشقى : شمس الدين محمد بن على بن أحمد بن طولون الصالحى الدمشقى (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م):**
  - قضاة دمشق المعروف بـ(الثغر البسام فى ذكر من ولى قضاء الشام) ، تحقيق : د. صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمى بدمشق ، ١٩٥٦م.
  - القلائد الجوهرية فى تاريخ الصالحية ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، الطبعة الثانية ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٨٠م.
  - مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان . وضع الحواشى : خليل المنصور ، منشورات دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٩٩٨م.
- **ابن عبد البر : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى (ت٤٦٣/١٠٧٠م):**
  - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله ، ج١ ، ج٢ ، دار الفتح بالقاهرة ، د.ت.
- **الفيروزابادى : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادى الشيرازى (ت٨١٧هـ/١٤١٤م):**
  - القاموس المحيط ، مصور عن الطبعة الثالثة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

- **ابن قاضى شهبة : تقى الدين أبو بكر أحمد بن قاضى شهبة الأسدى الدمشقى (ت٨٥١هـ/١٤٤٨م):**
  - تاريخ ابن قاضى شهبة ، ج١ ، ج٢ ، ج٣ ، تحقيق : عدنان درويش ، المعهد العلمى الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ، ١٩٩٤م.
- **القرشى : محيى الدين عبد القادر بن محمد القرشى الحنفى (ت٧٧٥هـ/١٣٧٣م):**
  - الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، ج٢ ، ج٣ ، تحقيق : د. عبد الفتاح الحلو ، مطبعة عيسى الحلبى بالقاهرة ، ١٩٧٨م.
- **القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على القلقشندى (ت٨٢١هـ/١٤١٨م):**
  - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٤ ، ٥ ، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ،المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **الكتبى : محمد بن شاكر الكتبى (ت٧٦٤هـ/١٣٦٣م):**
  - فوات الوفيات والذيل عليها ، ج١ ، ج٣ ، ج٤ ، تحقيق : د. إحسان عباس ، دار صادر – بيروت ، ١٩٧٣ م.
- **ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقى (ت٧٧٤هـ/١٣٧٣م):**
  - البداية والنهاية ، ج١٣ ، ج١٤ ، تحقيق : د. أحمد أبى ملحم ، و د. نجيب على عطوى ، وفؤاد السيد ، و مهدى ناصر الدين ، وعلى عبد الساتر ، دار الريان للتراث بالقاهرة ، ١٩٨٨م.

- **المقريزى : أحمد بن على المقريزى (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م):**
  - درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة ، ج٣ ، تحقيق : د. محمود الجليلى ، دار الغرب الإسلامى – بيروت ، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
  - السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٤ ق١ ، ج٤ ق٢ ، تحقيق : د. سعيد عبد الفتاح عاشور ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٧٢ م.
  - المقفى الكبير ، ج٢ ، تحقيق : محمد اليعلاوى ، دار الغرب الإسلامى – بيروت ، ١٩٩١م.
  - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط و الآثار ، ج٢ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٧م.
- **ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم بن على بن أحمد (ت٧١١هـ/١٣١١م):**
  - لسان العرب ، ج٢ ، ج٦ ، تحقيق : عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، وهاشم محمد الشاذلى ، دار المعارف بالقاهرة ، د.ت .
- **النعيمى : عبد القادر بن محمد النعيمى الدمشقى (ت٩٢٧هـ/١٥٢٠م):**
  - الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ج٢ ، تحقيق : جعفر الحسنى ، الناشر : مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
- **ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى (ت٦٢٦هـ/١٢٢٨م):**
  - معجم البلدان ، ج٢ ، ج٣ ، ج٥ ، تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

ثالثاً – المراجع :

- إبراهيم مصطفى ، وأحمد حسن الزيات ، وحامد عبد القادر ، ومحمد على النجار :
- المعجم الوسيط ، ج١ ، ج٢ ، الطبعة الثالثة ، مطابع الأوفست ، القاهرة ، ١٩٨٥م.

- **د. أحمد شلبى :**
- التربية والتعليم فى الفكر الإسلامى – جوانب التاريخ والنظم والفلسفة ، ضمن موسوعة الحضارة الإسلامية ، ج٥ ، الطبعة العاشرة ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ، ١٩٩٢م.

- **د. حسن شميسانى :**
- مدارس دمشق فى العصر الأيوبى ، منشورات دار الآفاق الجديدة – بيروت ، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- **ستيفن ليدر ، وياسين محمد السواس ، ومأمون الصاغرجى :**
- معجم السماعات الدمشقية المنتخبة من سنة٥٥٠-٧٥٠هـ/ ١١٥٥-١٣٤٩م ، المعهد الفرنسى للدراسات العربية بدمشق ١٩٩٦م.

- **د. سعيد عبد الفتاح عاشور :**
- العصر المماليكى فى مصر والشام ، الطبعة الثالثة ، مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٩٤م.
- المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، دار النهضة العربية بالقاهرة ، ١٩٦٢م.

- **د. عبد الغنى محمود عبد العاطى :**
  - التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، الطبعة الثانية ، دار المعارف بالقاهرة ، ٢٠٠٢م.
- **د. عبد المنعم ماجد :**
  - نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر – دراسة شاملة للنظم السياسية ، ج١ ، الطبعة الثانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٩م.
- **محمد قنديل البقلى :**
  - التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣م.
- **د. مصطفة الشكعة :**
  - جلال الدين السيوطى : مسيرته العلمية ، ومباحثه اللغوية ، مكتبة مصطفى الحلبى بالقاهرة ، ١٩٨١م.

رابعاً – رسائل جامعية:

- **سعود محمد العصفور :**
  - الحياة الثقافية فى دمشق فى عصر المماليك الجراكسة ، رسالة دكتوراه بكلية الآداب – جامعة عين شمس ، ١٩٩٥م ، إشراف: أ. د. أحمد رمضان أحمد.

خامساً – الموسوعات:

- **د. داود عبد الملك يحيى الحدابى :**
  - الإدارة التربوية العربية الإسلامية ، موسوعة الإدارة العربية الإسلامية ، المجلد الرابع ، الجزء السابع ، الناشر : المنظمة العربية للتنمية الإدارية بجامعة الدول العربية بالقاهرة ، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

سادساً – الدوريات:

- **إسماعيل زروخى :**
  - موضوعات التعليم ومناهجه – رؤية خلدونية للنظام التربوى الإسلامى ، بحث نشر فى مجلة (حصاد) ، العدد التاسع – يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، دار عين للدراست والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠١م.
- **د. أيمن فؤاد سيد :**
  - المدارس فى مصر قبل العصر الأيوبى ، بحث نشر فى كتاب : (ندوة تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم(٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.
- **د. زبيدة محمد عطا :**
  - مكتبات المدارس "خزانة الكتب" فى العصرين الأيوبى و المملوكى ، بحث نشر فى كتاب بحوث ندوة (تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية)،سلسلة تاريخ المصريين ، رقم (٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.
- **د. سعيد عبد الفتاح عاشور :**
  - العلم بين المسجد والمدرسة ، بحث نشر فى كتاب : (ندوة تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم(٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.
- **عبد الودود برغوت :**
  - جوانب اجتماعية من تاريخ دمشق فى ق١٥ م ، من مخطوطة أحمد بن أحمد بن طوق ، بحث نشر فى : (المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام) بالجامعة الأردنية – عَمّان ، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.
- **د. عفاف سيد محمد صبرة :**
  - المدارس فى العصر الأيوبى : بحث نشر فى كتاب : (ندوة تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم(٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.

- **د. محمد كمال الدين عز الدين :**
  - مجالس الإملاء فى ظل حكم سلاطين المماليك : بحث نشر فى كتاب : (ندوة تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية) ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم(٥١) ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٢م.
- **د. يوسف إبراهيم الزاملى :**
  - الأوضاع السياسية فى بيت المقدس وانعكاساتها على الحياة العلمية والثقافية بدمشق فى فترة الحروب الصليبية ، بحث نشر فى مجلة حصاد(رقم٩) التى يصدرها اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة ، دار عين للبحوث والدراسات الإنسانية والاجتماعية ، سنة٢٠٠١م.

سابعاً وأخيراً – المراجع الأجنبية :

- **Asma Sayeed :**
  - **Women and Hadith Transmission Two Case Studies From Mamluk Damascus,Studia Islamica NO.95, Maisonneuve&Larose,2002.**
- **Joan E.Gilbert:**
  - **Institutionalization of Muslim Scholarship and Professionalization of the‘ Mlama’ in Medieval Damascus,Studia Islamica, No.52, Maisonneuve& Lanose , 1980**